فن الامتحانات

بين الطالب والمعلم

الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا

الطبعة الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

دار الأدب الإسلامي
للنشر والتوزيع

فَنُّ الامتِحَانَاتِ
بَيْنَ الطَّالِبِ والمُعَلِّمِ

دار الأدب الإسلامي
للنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة
ص.ب : ٨١ ـ بريد بانوراما
١١٨١١ القاهرة - ج. م. ع.
هاتف وفاكس : ٤٠٢٠٨٦٦
البريد الإلكتروني :
ilh4pub@hotmail.com
www.top25books.net/ilh.asp

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

الإعداد الفني والجمع التصويري
بدار الأدب الإسلامي

رقم الإيداع
٩٦/١١٥٥٥

Islamic Literature
House
P.O. Box 81
Panorama P.O.
Cairo 11811 Egypt.
Tel: 4020866
Fax: 4020866
e.mail:
ilh4pub@hotmail.com
www.top25books.net/ilh.asp

بسم الله الرحمن الرحيم

تَـجْرِبَةٌ عَانَيْتُهَا

قَارِئِيَّ الْكِرَامُ ، طَابَتْ أَيَّامُكُمْ ، وَزَهَتْ بِالْعِلْمِ أَسْمَارُكُمْ وَنَوَادِيكُمْ ، وَبَعْدُ ...

فَإِنَّ لِي مَعَ الِامْتِحَانَاتِ قِصَّةً لَا تُنْسَىٰ :

كَانَ ذَٰلِكَ مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ ، وَكُنْتُ أَحْبُو نَحْوَ السَّادِسَةِ مِنْ عُمْرِي عَلَىٰ مَا أَعْتَقِدُ ، وَكُنْتُ أَحْيَا فِي كَنَفِ جَدٍّ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، فَكَانَ - طَيَّبَ اللَّهُ ثَرَاهُ - يَأْخُذُنِي بِالتَّعْلِيمِ وَالتَّثْقِيفِ آنًا فَآنًا ، وَكَانَ مِمَّا عَلَّمَنِيهِ شَيْءٌ مِنْ مَبَادِئِ النَّحْوِ ظَنَّ لِحُبِّهِ لِي وَلِصِغَرِ سِنِّي أَنَّهَا كَثِيرَةٌ عَلَيَّ ، وَظَنَنْتُ لِجَهْلِي وَقِلَّةِ خِبْرَتِي أَنَّهَا غَايَةٌ .

وَانْطَلَقَ بِي ذَاتَ لَيْلَةٍ إِلَىٰ دَارِ كَبِيرِ أُسْرَتِنَا(١) وَعَالِمِ الْبَلْدَةِ وَشَيْخِهَا ، وَهُوَ رَجُلٌ مَهِيبُ الْحَضْرَةِ ، سَدِيدُ السَّطْوَةِ ، حَادُّ الْمِزَاجِ ، تُوَقِّرُهُ الْخَاصَّةُ ، وَتَرْهَبُهُ الْعَامَّةُ ...

---

(١) هو الشيخ محمد مواهب بن محمود الباشا : انظره في « نهر الذهب في تاريخ حلب » لكامل الغزي ، و« أعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء » لراغب الطباخ .

وَكَانَ قَاضِيَ الْبَلْدَةِ وَمُفْتِيَهَا وَحَلَّالَ خُصُومَتِهَا ، يَوْمَ كَانَ النَّاسُ إِذَا تَنَازَعُوا فِي أَمْرٍ رَدُّوهُ إِلَىٰ اللّٰهِ وَرَسُولِهِ .

وَجَعَلَ الرَّجُلَانِ يَتَجَاذَبَانِ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ ، وَجَعَلْتُ أَتَلَهَّىٰ بِمَا فِي الْبَيْتِ مِنْ أَثَاثٍ ، فَقَالَ جَدِّي لِلشَّيْخِ : هَذَا وَلَدُكَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ قَدْ أَتْقَنَ الْقِرَاءَةَ وَأَصْبَحَ جَيِّداً فِي النَّحْوِ ...

ثُمَّ أَطْرَانِي بَعْضَ الْإِطْرَاءِ ، فَالْتَفَتَ إِلَيَّ الشَّيْخُ ، وَقَالَ لِي مِنْ غَيْرِ مُقَدِّمَاتٍ : أَعْرِبْ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ :

﴿ الْـحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَـمِينَ ﴾ ...

فَنَزَلَ طَلَبُهُ عَلَيَّ نُزُولَ الصَّاعِقَةِ ، وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ سَاهِمًا وَاجِمًا ، فَمَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ الْقُرْآنَ يُعْرَبُ ، وَمَا كُنْتُ أَعْرِفُ مِنَ الْإِعْرَابِ إِلَّا تِلْكَ الْأَمْثِلَةَ الْمُتَدَاوَلَةَ ، وَلَمَّا وَجَدَنِي لَا أُجِيبُ ؛ أَرْدَفَ يَسْأَلُنِي : « الْـحَمْدُ » أَهِيَ اسْمٌ أَمْ فِعْلٌ ؟ .

فَلَمْ أُجِبْ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ ، فَالْأَفْعَالُ مَعْرُوفَةٌ لَدَيَّ ، وَالْأَسْمَاءُ عِنْدِي هِيَ زَيْدٌ ، وَخَالِدٌ ، وَكِتَابٌ وَنَحْوُهَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ مُسَمَّيَاتٍ مَحْسُوسَةٍ ...

أَمَّا « الْـحَمْدُ » هَذِهِ ؛ فَمَا وَرَدَتْ لِي عَلَىٰ بَالٍ قَبْلَ الْيَوْمِ ؛

فَمَا هِيَ عِنْدِي بِفِعْلٍ وَلَا هِيَ اسْمٌ أَيْضًا .

وَرَمَانِي الرَّجُلُ بِنَظْرَةٍ قَاسِيَةٍ ، ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ طَلَبَ مِنِّي أَنْ أَسْقِيَهُ شَرْبَةَ مَاءٍ ؛ فَلَمَّا هَمَمْتُ أَنْ أَفْعَلَ كَسَرْتُ الْإِنَاءَ وَكَانَ ثَمِينًا ؛ فَكَانَتْ تِلْكَ ثَالِثَةَ الْأَثَافِيِّ(١).

وَانْصَرَفَ الشَّيْخُ إِلَىٰ حَدِيثِهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ أَيَّ أَمْرٍ اجْتَرَحَ حِينَ فَاجَأَنِي بِالْأَسْئِلَةِ مِنْ غَيْرِ مُقَدِّمَاتٍ ...

وَحِينَ كَلَّفَنِي مَا لَا أُطِيقُ ...

وَلَا يَدْرِي أَيَّ عُقْدَةٍ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَصْنَعَ بِي حِينَ جَعَلَ السُّؤَالَ أَكْبَرَ مِنَ الْمَسْئُولِ ، وَحَكَمَ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ كُلِّهِ مِنْ خِلَالِ جُزْئِيَّةٍ صَغِيرَةٍ ... وَمَا كُنْتُ أَعْلَمُ يَوْمَهَا أَنِّي سَأَكُونُ عَلَىٰ مَدَىٰ الْحَيَاةِ مُعَلِّمًا وَمُتَعَلِّمًا ...

وَأَنَّنِي سَأَبْقَىٰ عَلَىٰ الدَّوَامِ مُمْتَحَنًا أَوْ مُمْتَحِنًا ، وَأَنَّهُ سَيُوكَلُ إِلَيَّ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ الْإِشْرَافُ عَلَىٰ إِعْدَادِ أَسْئِلَةِ الِامْتِحَانَاتِ الْعَامَّةِ فِي بِلَادِي بِضْعَ سِنِينَ ... وَأُشْهِدُ اللَّهَ أَنَّنِي مَا وَضَعْتُ سُؤَالاً فِي امْتِحَانٍ ، أَوْ نَظَرْتُ فِي سُؤَالٍ وَضَعَهُ غَيْرِي

---

(١) ثالثة الأثافي : الأُثفية حجر يرتكز عليه القدر ، وكانوا يصنعون الموقد من ثلاثة أثافي . وثالثة الأثافي مثل يضرب في رمي الإنسان بالشر كله .

إِلَّا قَفَزَتْ فِي ذِهْنِي صُورَةُ الِامْتِحَانِ الْأَوَّلِ ، وَحَرَصْتُ عَلَىٰ أَنْ أُوَائِمَ بَيْنَ الِامْتِحَانِ وَالْمُمْتَحَنِ حَتَّىٰ لَا أُرْهِقَ الْآخَرِينَ كَمَا أُرْهِقْتُ ، وَلَا أُكَلِّفَهُمْ فَوْقَ مَا يُطِيقُونَ كَمَا كُلِّفْتُ ، وَلَا أَحْكُمَ عَلَيْهِمْ حُكْمًا جَائِرًا كَمَا حُكِمَ عَلَيَّ .

بَلْ إِنَّنِي مَا كُنْتُ أَعْلَمُ آنَذَاكَ أَنَّ حَيَاةَ الْأَفْرَادِ وَالْأُمَمِ كُلَّهَا سِلْسِلَةٌ مِنَ الِامْتِحَانَاتِ ، وَلَا يَنْقَضِي وَاحِدٌ مِنْهَا حَتَّىٰ يَبْدَأَ آخَرُ ، وَرُبَّمَا تَدَاخَلَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ...

يُمْتَحَنُ الْمَرْءُ فِي مَالِهِ فَتُصِيبُهُ جَائِحَةٌ[١] تَذْهَبُ بِمَا مَلَكَ ، فَيُخْتَبَرُ حَزْمُهُ وَعَزْمُهُ ؛ أَيَسْتَأْنِفُ جِهَادَهُ مِنْ جَدِيدٍ لِيُعَوِّضَ مَا ذَهَبَ ؟...

أَمْ تَشُلُّ الْجَائِحَةُ حَرَكَتَهُ ، وَتَذْهَبُ النَّازِلَةُ بِقُوَّتِهِ فَيَقْعُدَ قَانِطًا يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا حَدَثَ .

وَيُمْتَحَنُ الْمَرْءُ فِي خُلُقِهِ فَيَتَعَرَّضُ لِمَوَاقِفَ كَثِيرَةٍ ، وَمُغْرِيَاتٍ كَبِيرَةٍ تُخْتَبَرُ فِيهَا اسْتِقَامَتُهُ فِي سُلُوكِهِ ، وَأَمَانَتُهُ فِيمَا عُهِدَ بِهِ إِلَيْهِ ؛ ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَيْهِ كَيْفَ يُوَاجِهُ هَذَا الِاخْتِبَارَ الْقَاسِيَ ؟...

---

(١) الجائحة : مصيبة لا تبقي شيئًا .

أَيَنْتَصِرُ عَلَىٰ نَفْسِهِ فَيَخْرُجَ مِنَ الِامْتِحَانِ مَوْفُورَ الْخُلُقِ حَمِيدَ السِّيرَةِ ، أَمْ تَنْتَصِرُ عَلَيْهِ نَفْسُهُ وَيَطْغَىٰ عَلَيْهِ هَوَاهُ .

وَيُمْتَحَنُ الْمَرْءُ أَيْضًا فِي دِينِهِ ، وَأَكْثَرُ مَا يَتَعَرَّضُ لِذَلِكَ الشَّبَابُ مِنْ أَبْنَائِنَا حِينَ يَجِدُونَ أَنْفُسَهُمْ وَجْهًا لِوَجْهٍ أَمَامَ حَضَارَةِ أُورُبَّا وَمَا تَزْخَرُ بِهِ مِنْ فِتْنَةٍ آسِرَةٍ ، وَمَا تَضِجُّ بِهِ مِنْ شَهَوَاتٍ فَاجِرَةٍ ، وَمَا تَحْمِلُهُ مِنْ فَسَادٍ . أَيَرْغَبُونَ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ اعْتِصَامًا بِدِينِهِمْ وَرِضًا بِمَا عِنْدَ اللَّهِ ، وَهُمْ يَذْكُرُونَ قَوْلَهُ جَلَّ شَأْنُهُ :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾[1].

أَمْ يَسْقُطُونَ عِنْدَ التَّجْرِبَةِ الْأُولَىٰ وَيَتَمَرَّغُونَ فِي الْأَوْحَالِ ؟ .

وَتُمْتَحَنُ الْأُمَمُ أَيْضًا ، وَذَلِكَ حِينَ يَنْزِلُ بِهَا وَبَاءٌ أَوْ تَفْتِكُ بِهَا مَجَاعَةٌ ...

فَتُخْتَبَرُ فِي صَبْرِهَا وَصُمُودِهَا ، وَتَعَاوُنِهَا وَ إِيثَارِ أَبْنَائِهَا ، وَمَدَىٰ بَذْلِ الْمُوسِرِينَ وَذَوِي الْفَضْلِ ، وَمَدَىٰ قَنَاعَةِ الْمُعْسِرِينَ وَأَصْحَابِ الْخَصَاصَةِ ؟ .

---

(١) سورة النازعات : آية ٤٠ ، ٤١.

وَقَدِ امْتُحِنَ أَسْلَافُنَا فِي عَامِ «الرَّمَادَةِ»[1] فَخَرَجُوا مِنَ الِامْتِحَانِ نَاجِحِينَ...

وَاخْتُبِرُوا يَوْمَ تَجْهِيزِ جَيْشِ الْعُسْرَةِ[2] فَكَانُوا مِنَ الْفَائِزِينَ...

وَلَكِنَّ أَقْسَىٰ الِامْتِحَانَاتِ الَّتِي تَتَعَرَّضُ لَهَا الْأُمَمُ، إِنَّمَا تَكُونُ حِينَ يَعْدُو عَلَىٰ حُرُمَاتِهَا عَدُوٌّ بَاغٍ، وَيَحْتَلُّ دِيَارَهَا دَخِيلٌ طَاغٍ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَكُونُ الِاخْتِبَارُ الْكَبِيرُ.

أَلَا إِنَّنَا الْيَوْمَ فِي امْتِحَانٍ رَهِيبٍ، فَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ نِهَايَتِهِ؟ وَكَيْفَ تَكُونُ النِّهَايَةُ؟ نَضْرَعُ إِلَىٰ اللَّهِ الْعَلِيِّ الْقَدِيرِ أَنْ يَجْعَلَهَا نِهَايَةً كَنِهَايَةِ «حِطِّينَ»، وَانْتِصَارًا كَانْتِصَارِ صَلَاحِ الدِّينِ.

أَرَانِي قَدْ خَرَجْتُ بِكُمْ عَنِ الْمَوْضُوعِ ـ أَيُّهَا الْقُرَّاءُ ـ ذَلِكَ لِأَنَّ حَدِيثِي يَنْبَغِي أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَىٰ الِامْتِحَانَاتِ الْمَدْرَسِيَّةِ؛ فَهِيَ الَّتِي كُتِبَ الْمَوْضُوعُ مِنْ أَجْلِهَا.

* * *

(١) عام الرمادة: هو عام حدث فيه قحط شديد حتىٰ صارت الأرض بلون الرماد، وكان ذلك في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

(٢) جيش العُسْرَة: هو الجيش الذي أرسله النبي ﷺ لغزو الرُّوم في تبوك، في السنة التاسعة للهجرة، وكان عامها عام جدب والمؤنة قليلة والرواحل أقل.

الِامْتِحَانَاتُ
عِنْدَ الْأُمَمِ الْقَدِيمَةِ

الِامْتِحَانَاتُ عِنْدَ الصِّينِ :

وَالِامْتِحَانَاتُ الْمَدْرَسِيَّةُ هِيَ الْأُخْرَىٰ قَدِيمَةٌ مُغْرِقَةٌ فِي الْقِدَمِ ، وَلَعَلَّ أَقْدَمَ مَا وَعَاهُ تَارِيخُ التَّرْبِيَةِ مِنِ امْتِحَانَاتٍ ؛ هِيَ تِلْكَ الَّتِي كَانَتْ تَجْرِي فِي بِلَادِ « الصِّينِ » مُنْذُ مِئَاتِ السِّنِينَ قَبْلَ مِيلَادِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ...

وَكَانَتْ لِلِامْتِحَانَاتِ عِنْدَهُمْ أَرْبَعُ مَرَاحِلَ ، فَالطَّالِبُ حِينَ يُنْهِي دِرَاسَتَهُ التَّمْهِيدِيَّةَ يَدْخُلُ امْتِحَانَ الْمَرْحَلَةِ الْأُولَىٰ ، وَكَانَ يُعْقَدُ فِي عَوَاصِمِ الْمَنَاطِقِ كُلَّ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ مَرَّةً ، وَيَسْتَمِرُّ مُدَّةً تَزِيدُ عَلَىٰ عِشْرِينَ سَاعَةً مِمَّا يُكَلِّفُ الطَّالِبَ مَجْهُودًا شَاقًّا يَنُوءُ بِهِ جِسْمُهُ وَعَقْلُهُ ، ثُمَّ لَا يُسْمَحُ بِالنَّجَاحِ إِلَّا لِعَدَدٍ لَا يَتَجَاوَزُ الْعِشْرِينَ مِنْ كُلِّ مِائَةٍ .

وَيُدْعَىٰ النَّاجِحُ بِذِي « الْمَلَكَةِ الزَّاهِرَةِ » ، وَيَحِقُّ لَهُ دُخُولُ امْتِحَانَاتِ الْمَرْحَلَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي تُعْقَدُ فِي عَوَاصِمِ الْمُقَاطَعَاتِ بَعْدَ الِامْتِحَانِ الْأَوَّلِ بِبِضْعَةِ شُهُورٍ ، وَيَكُونُ أَشَدَّ قَسْوَةً مِنَ الْأَوَّلِ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَنْجَحَ فِيهِ أَكْثَرُ مِنْ وَاحِدٍ فِي كُلِّ مِائَةٍ ، وَيُدْعَىٰ النَّاجِحُ فِيهِ بِاسْمِ « الطَّالِبِ الْمُتَقَدِّمِ » وَلَهُ أَنْ يُزَيِّنَ قُبَّعَتَهُ بِزِرٍّ ذَهَبِيٍّ ثَمِينٍ ، وَأَنْ يَرْفَعَ عَلَمَيْنِ عَلَىٰ عَمُودَيْنِ شَامِخَيْنِ أَمَامَ مَنْزِلِ أُسْرَتِهِ ، وَأَنْ يَضَعَ لَافِتَةً فَوْقَ بَابِ بَيْتِهِ لِيُشِيرَ إِلَىٰ أَنَّهُ بَيْتُ رَجُلٍ مُثَقَّفٍ .

أَمَّا امْتِحَانَاتُ الْمَرْحَلَةِ الثَّالِثَةِ فَكَانَتْ تُعْقَدُ فِي عَاصِمَةِ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ ، وَكَانَتْ تَسْتَمِرُّ ثَلَاثَةَ عَشَرَ يَوْمًا يُمْنَحُ الطَّالِبُ النَّاجِحُ فِيهَا شَهَادَةَ « الْعُلَمَاءِ الْمُسَجَّلِينَ » .

وَيَنَالُ رُتْبَةً عَالِيَةً تُتِيحُ لَهُ أَنْ يَعِيشَ عَلَىٰ نَفَقَةِ الدَّوْلَةِ عِيشَةً كَرِيمَةً رَاضِيَةً .

ثُمَّ يَلِي بَعْدَ ذَٰلِكَ امْتِحَانٌ رَابِعٌ لَا يَتَقَدَّمُ لَهُ إِلَّا « الْعُلَمَاءُ الْمُسَجَّلُونَ » ، وَلَا يَنْجَحُ فِيهِ إِلَّا الْقَلِيلُ النَّادِرُ ، وَالنَّاجِحُ فِي هَٰذَا الِامْتِحَانِ لَا يَنَالُ شَهَادَةً ... وَإِنَّمَا يُمْنَحُ مَنْصِبًا كَبِيرًا خَطِيرًا

كَأَنْ يَغْدُوَ وَزِيرًا ، أَوْ عُضْوًا فِي الْمَجْلِسِ الْإِمْبِرَاطُورِيِّ .

وَكَانَ النَّاجِحُونَ فِي هَذَا الِامْتِحَانِ يُكَوِّنُونَ طَبَقَةَ الْعُلَمَاءِ ، أَوْ مَا يُسَمَّىٰ عِنْدَهُمْ « بِغَابَةِ حَمَلَةِ الْأَقْلَامِ » .

وَكَانَ مِنْ حَقِّ الْإِمْبِرَاطُورِ أَنْ يَخْتَارَ وَاحِدًا مِنْ أَبْرَزِ هَؤُلَاءِ فَيُتَوِّجَهُ عَلَيْهِمْ ، وَيَدْعُوَهُ « مِثَالَ الْكَمَالِ فِي الْعُلُومِ » .

وَكَانَ لِهَذِهِ الِامْتِحَانَاتِ أَثَرُهَا الْكَبِيرُ فِي حِفْظِ تَعَالِيمِ فَيْلَسُوفِ الصِّينِ الْأَكْبَرِ « كُنْفُوشْيُوسَ » ، كَمَا كَانَ لَهَا أَثَرٌ سَيِّئٌ عَلَىٰ التَّرْبِيَةِ فِي « الصِّينِ » حَيْثُ جَعَلَهَا « الصِّينِيُّونَ » غَايَةً تُقْصَدُ لِذَاتِهَا ، وَمَا هِيَ فِي الْوَاقِعِ إِلَّا وَسِيلَةٌ .

الِامْتِحَانَاتُ عِنْدَ الْأُورُبِّيِّينَ :

كَانَ لِلِامْتِحَانَاتِ وَالْإِجَازَاتِ فِي جَامِعَاتِ أُورُبَّا فِي الْعُصُورِ الْوُسْطَىٰ شَأْنٌ كَبِيرٌ ؛ فَكَانَ الطَّالِبُ إِذَا أَنْهَىٰ دِرَاسَتَهُ عُيِّنَ مُعِيدًا فِي كُلِّيَّتِهِ ، فَإِذَا ثَبَتَ نَجَاحُهُ بِإِقْبَالِ الطُّلَّابِ عَلَىٰ مُحَاضَرَاتِهِ ، سُمِحَ لَهُ بِأَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَىٰ الِامْتِحَانَاتِ الَّتِي تُؤَهِّلُهُ لِنَيْلِ دَرَجَةِ الدُّكْتُورَاه ، وَكَانَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَجْلِ الْحُصُولِ عَلَىٰ هَذِهِ

الدَّرَجَةِ الرَّفِيعَةِ ؛ مِنِ اجْتِيَازِ امْتِحَانَيْنِ اثْنَيْنِ أَوَّلُهُمَا خَاصٌّ وَالثَّانِي عَامٌّ .

وَقَبْلَ أَنْ يُسْمَحَ لِلطَّالِبِ بِالتَّقَدُّمِ لِلِامْتِحَانِ الْخَاصِّ ، كَانَ يُقَدِّمُهُ رَئِيسُ الْقِسْمِ الَّذِي تَخَصَّصَ بِهِ إِلَىٰ مُدِيرِ الْجَامِعَةِ ، فَيُقْسِمُ الطَّالِبُ أَنَّهُ مُسْتَوْفٍ لِجَمِيعِ الشُّرُوطِ ، وَأَنَّهُ سَيَدْفَعُ الرُّسُومَ الْمُقَرَّرَةَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ يُقَدِّمُهُ إِلَىٰ رَئِيسِ الْأَسَاقِفَةِ الَّذِي كَانَ مِنْ حَقِّهِ وَحْدَهُ مَنْحُ الدَّرَجَاتِ الْعِلْمِيَّةِ بِتَفْوِيضٍ مِنَ الْبَابَا .

فَيَشْهَدُ رَئِيسُ الْقِسْمِ أَمَامَ هَذَا الْمَرْجِعِ الْكَنَسِيِّ الْكَبِيرِ بِأَنَّ الطَّالِبَ أَهْلٌ لِلدُّخُولِ فِي الِامْتِحَانَاتِ .

وَفِي صَبِيحَةِ يَوْمِ الِامْتِحَانِ يَحْضُرُ الطَّالِبُ قُدَّاسًا فِي الْكَنِيسَةِ ، ثُمَّ يَمْثُلُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّجْنَةِ الَّتِي يَرْأَسُهَا رَئِيسُ الْأَسَاقِفَةِ ، فَيُقْسِمُ الطَّالِبُ عَلَىٰ احْتِرَامِ هَيْئَةِ الِامْتِحَانِ وَقَرَارَاتِهَا ، ثُمَّ يَبْدَأُ بِعَرْضِ مَعْلُومَاتِهِ ، وَعِنْدَ نِهَايَةِ الِامْتِحَانِ يُؤْخَذُ رَأْيُ الْمُمْتَحِنِينَ عَنْ طَرِيقِ الِاقْتِرَاعِ السِّرِّيِّ ؛ فَإِذَا رَأَتِ الْأَكْثَرِيَّةُ نَجَاحَهُ فَازَ وَإِلَّا فَلَا ...

وَفِي حَالِ نَجَاحِهِ يُسْمَحُ لَهُ بِدُخُولِ الِامْتِحَانِ الْعَامِّ ،

وَكَانَ هَذَا الِامْتِحَانُ يُحَاطُ بِمَظَاهِرِ الْفَخَامَةِ وَالتَّرَفِ وَالشَّرَفِ الَّتِي تَنُوءُ بِهَا كَوَاهِلُ الْأَغْنِيَاءِ بَلْهَ[1] الْمُتَوَسِّطِينَ وَالْفُقَرَاءَ.

إِذْ كَانَ عَلَىٰ الطَّالِبِ أَنْ يَطُوفَ قَبْلَ مَوْعِدِ الِامْتِحَانِ بِأَنْحَاءِ الْمَدِينَةِ لِدَعْوَةِ كِبَارِ رِجَالِ الدَّوْلَةِ وَأَصْدِقَائِهِ وَذَوِيهِ، وَأَنْ يَخْرُجَ لِذَلِكَ فِي مَوْكِبٍ عَظِيمٍ تَتَقَدَّمُهُ طَائِفَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ رِجَالِ الْكَنِيسَةِ.

أَمَّا فِي يَوْمِ الِامْتِحَانِ نَفْسِهِ فَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَىٰ «الْكَاتِدْرَائِيَّةِ» بِصُحْبَةِ أَسَاتِذَتِهِ وَرِفَاقِهِ وَأَهْلِيهِ وَسَطَ دَقِّ الطُّبُولِ وَعَزْفِ الْمَعَازِفِ، وَهُنَاكَ يُلْقِي الْبَحْثَ الَّذِي أَعَدَّهُ، ثُمَّ يُجِيبُ عَنْ أَسْئِلَةِ زُمَلَائِهِ وَالنَّظَّارَةِ[2]، وَيَقِفُ بَيْنَهُمْ مُدَافِعًا عَنْ آرَائِهِ؛ حَتَّىٰ إِذَا انْتَهَىٰ الْحَفْلُ تَقَدَّمَ إِلَيْهِ رَئِيسُ الْأَسَاقِفَةِ وَمَنَحَهُ دَرَجَةَ الدُّكْتُورَاه بِاسْمِ الْبَابَا، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَجْلِسُ عَلَىٰ كُرْسِيِّ الْأُسْتَاذِيَّةِ وَبِيَدِهِ كِتَابٌ مَفْتُوحٌ...

وَهُنَا يَتَقَدَّمُ مِنْهُ أُسْتَاذُهُ وَيَضَعُ فِي يَدِهِ خَاتَمًا ذَهَبِيًّا، وَيُصَافِحُهُ مُعْلِنًا بِذَلِكَ انْضِمَامَهُ إِلَىٰ هَيْئَةِ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ، ثُمَّ

---

(١) بَلْهَ: دع المتوسطين والفقراء. (٢) النظارة: الحاضرون.

يَنْصَرِفُ الدُّكْتُورُ الْجَدِيدُ بِمِثْلِ الْمَوْكِبِ الَّذِي جَاءَ فِيهِ، وَحِينَئِذٍ يَدْفَعُ الرُّسُومَ الْبَاهِظَةَ الْمُقَرَّرَةَ، وَيُرْسِلُ لِأَسَاتِذَتِهِ وَمُعَاوِنِيهِمْ وَالْمُوَظَّفِينَ الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ امْتِحَانَاتِهِ مَا يَتَرَتَّبُ لَهُمْ مِنِ اسْتِحْقَاقَاتٍ.

أَمَّا الْغَرَامَةُ الْكُبْرَىٰ فَكَانَتْ تَتَمَثَّلُ فِي تِلْكَ الْوَلِيمَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي كَانَ يَدْعُو إِلَيْهَا كُلَّ مَنْ أَسْهَمَ فِي تَخَرُّجِهِ، وَكَانَ يُطْلَبُ مِنَ التَّلَامِيذِ الْأَغْنِيَاءِ فَوْقَ ذَلِكَ؛ أَنْ يُقِيمُوا حَفْلاً لِلْمُبَارَزَةِ أَوْ لِمُصَارَعَةِ الثِّيرَانِ إِنْ كَانُوا مِنْ طُلَّابِ الْجَامِعَاتِ الْأَسْبَانِيَّةِ.

وَالْمُلَاحَظُ عَلَىٰ هَذِهِ الِامْتِحَانَاتِ أَنَّهَا كَانَتْ خَاضِعَةً لِسُلْطَانِ الْكَنِيسَةِ الْمُطْلَقِ الَّتِي كَانَ لَهَا وَحْدَهَا حَقُّ مَنْحِ الشَّهَادَاتِ لِمَنْ تَثِقُ بِحُسْنِ سُلُوكِهِ الْمَسِيحِيِّ.

وَمَا الْمُسْتَشْرِقُونَ الَّذِينَ يَبْحَثُونَ فِي تَارِيخِنَا وَآدَابِنَا، وَيُخَطِّطُونَ لَنَا بِطَرِيقٍ مُبَاشِرٍ أَوْ غَيْرِ مُبَاشِرٍ، إِلَّا مِنْ أُولَئِكَ الْخِرِّيجِينَ أُو أَبْنَائِهِمْ أَوْ حَفَدَتِهِمْ.

لَقَدْ حَاوَلَتِ اللَّوَائِحُ الْجَامِعِيَّةُ فِي أَوَاخِرِ الْعُصُورِ الْوُسْطَىٰ

تَحْدِيدَ هَذِهِ الرُّسُومِ فَقَرَّرَ مَجْمَعُ « فِيينَّا » عَامَ ١٣١١ لِلْمِيلَادِ أَلَّا تَزِيدَ الرُّسُومُ الَّتِي يَدْفَعُهَا الطَّالِبُ لِلْحُصُولِ عَلَىٰ دَرَجَةِ اللِّيسَانْسِ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ آلَافِ فِرَنْكٍ ذَهَبِيٍّ بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ .

وَرَغْمَ ذَلِكَ فَقَدْ بَقِيَ الْعِلْمُ وَقْفًا عَلَىٰ طَبَقَةٍ خَاصَّةٍ مِنَ النَّاسِ ، وَأَدَّىٰ إِلَىٰ سَدِّ أَبْوَابِهِ فِي وَجْهِ الْآخَرِينَ مَهْمَا تَوَافَرَ لَهُمْ مِنْ كِفَايَاتٍ ؛ مَا دَامُوا لَا يَمْلِكُونَ تِلْكَ الْمَبَالِغَ الْمُقَرَّرَةَ .

* * *

الِامْتِحَانَاتُ وَأَنْوَاعُهَا

كَانَتِ الِامْتِحَانَاتُ ـ كَمَا رَأَيْنَا ـ إِمَّا شَفَهِيَّةً تُجْرَىٰ أَمَامَ اللِّجَانِ الْفَاحِصَةِ، وَإِمَّا بُحُوثًا أَوْ رَسَائِلَ تُنَاقَشُ عَلَىٰ مَلَإٍ مِنَ النَّاسِ.

أَمَّا الِامْتِحَانَاتُ التَّحْرِيرِيَّةُ الَّتِي يَجْلِسُ فِيهَا الطُّلَّابُ عَاكِفِينَ عَلَىٰ الْوَرَقِ عَابِسِي الْوُجُوهِ مُقَطِّبِي الْحَوَاجِبِ، تُحِيطُ بِهِمْ عُيُونُ الْمُرَاقِبِينَ، وَيَرِينُ[1] عَلَيْهِمُ السُّكُونُ الْمُطْبِقُ؛ فَتِلْكَ لَمْ تَعْرِفْهَا دُورُ الْعِلْمِ إِلَّا فِي الْقَرْنِ الْمَاضِي... حِينَ ازْدَحَمَتِ الْمَدَارِسُ وَالْمَعَاهِدُ وَالْكُلِّيَّاتُ، وَكَثُرَ عَدَدُ الْمُتَقَدِّمِينَ لِلِامْتِحَانَاتِ مِنْ دَاخِلِ الْمَدَارِسِ وَمِنْ خَارِجِهَا.

وَمَهْمَا قِيلَ فِي الِامْتِحَانَاتِ قَدْحًا أَوْ مَدْحًا، فَهِيَ أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَا مَنْدُوحَةَ[2] عَنْهُ.

---

(١) يرين عليهم: يثقل عليهم ويشتد، أو يظللهم. (٢) لا مندوحة: لا مفر.

وَالْمُرَبُّونَ عَلَىٰ كَثْرَةِ مَا قَالُوهُ فِي ثَلْبِ[1] الِامْتِحَانَاتِ وَعَيْبِهَا قَدْ أَجْمَعُوا ـ أَوْ كَادُوا ـ عَلَىٰ أَنَّهَا ذَاتُ مَزَايَا وَفَوَائِدَ مَذْكُورَةٍ مَشْكُورَةٍ ...

غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ الِامْتِحَانَاتِ الشَّفَهِيَّةَ ظَلَّتْ كَذَلِكَ إِلَىٰ مَطْلَعِ الْقَرْنِ الْمَاضِي حَيْثُ فُتِحَتْ أَبْوَابُ التَّعْلِيمِ عَلَىٰ مَصَارِيعِهَا، وَتَدَفَّقَ النَّاسُ، كُلُّ النَّاسِ عَلَىٰ دُورِ الْعِلْمِ ...

فَغَصَّتِ الْمَدَارِسُ وَالْمَعَاهِدُ وَالْكُلِّيَّاتُ بِالتَّلَامِيذِ الصِّغَارِ، وَالطُّلَّابِ الْكِبَارِ، وَكَثُرَ عَدَدُ الْمُتَقَدِّمِينَ لِلِامْتِحَانَاتِ كَثْرَةً كَبِيرَةً، وَأَصْبَحَ مِنَ الْعَسِيرِ اخْتِبَارُ هَذِهِ الْجُمُوعِ الزَّاخِرَةِ اخْتِبَارًا شَفَهِيًّا.

وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ بُدٌّ مِنَ الِامْتِحَانِ، ذَلِكَ لِأَنَّ الِامْتِحَانَاتِ ضَرُورَةٌ لَا يُسْتَغْنَىٰ عَنْهَا فِي أَيِّ نِظَامٍ مِنْ نُظُمِ التَّعْلِيمِ، أَوْ فِي أَيِّ مُجْتَمَعٍ مِنَ الْمُجْتَمَعَاتِ ...

فَنَحْنُ دَائِمًا بِحَاجَةٍ إِلَىٰ تَقْدِيرِ كِفَايَاتِ النَّاسِ، وَمَعْرِفَةِ مَدَىٰ صَلَاحِهِمْ لِمَا سَيُلْقَىٰ عَلَيْهِمْ مِنْ أَعْبَاءٍ.

---

(١) في ثلب: في إظهار مساوئها.

فَوَائِدُ الِامْتِحَانَاتِ وَمَزَايَاهَا :

لَا بُدَّ لِلدَّارِسِينَ بِعَامَّةٍ ، أَوْ لِلصِّغَارِ مِنْهُمْ بِخَاصَّةٍ مِنْ غَايَةٍ حِسِّيَّةٍ يَضَعُونَهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ حَتَّىٰ يَعْمَلُوا لِبُلُوغِهَا ، فَلَيْسُوا جَمِيعًا مِمَّنْ يَمْلِكُونَ مِنْ بُعْدِ النَّظَرِ مَا يَجْعَلُهُمْ يَبْذُلُونَ جَهْدًا فِي الدِّرَاسَةِ حُبًّا بِالْعِلْمِ نَفْسِهِ ... وَمِنْ هُنَا كَانَ الِامْتِحَانُ سَبِيلاً مِنْ سُبُلِ التَّشْوِيقِ الدَّائِمَةِ .

أَضِفْ إِلَىٰ ذَلِكَ أَنَّ الِامْتِحَانَاتِ تَدْفَعُ الطُّلَّابَ الْكِبَارَ إِلَىٰ الْبَحْثِ عَنِ الْمَعْلُومَاتِ فِي مَرَاجِعِهَا ، وَرَبْطِ بَعْضِهَا بِبَعْضِهَا الْآخَرِ وَاخْتِزَانِهَا فِي الذِّهْنِ ، وَفِي ذَلِكَ فَوَائِدُ جَزِيلَةٌ جَلِيلَةٌ ...

فَهُنَاكَ فَرْقٌ كَبِيرٌ بَيْنَ مَنْ يَقْرَأُ وَلَيْسَ لَهُ غَرَضٌ ، وَمَنْ يَقْرَأُ تَحْقِيقًا لِغَايَةٍ وَضَعَهَا نُصْبَ عَيْنَيْهِ .

ثُمَّ إِنَّ الِامْتِحَانَاتِ تُخَلِّقُ الطُّلَّابَ بِخُلُقِ الْجِدِّ وَالْمُثَابَرَةِ وَتَحَمُّلِ الْمَسْئُولِيَّةِ ، وَتُعَوِّدُهُمْ عَلَىٰ الْعَمَلِ الْمُرَكَّزِ الْهَادِفِ نَحْوَ غَايَةٍ مُحَدَّدَةٍ ، وَتَبْعَثُ فِي نُفُوسِهِمْ رُوحَ الْمُنَافَسَةِ الْخَيِّرَةِ مِمَّا يَدْفَعُهُمْ إِلَىٰ الْمُذَاكَرَةِ ، وَيَجْعَلُهُمْ يَسْتَعْذِبُونَ الْعَذَابَ فِي سَبِيلِهَا .

وَالِامْتِحَانَاتُ تَقِفُ التَّلَامِيذَ عَلَىٰ مَدَىٰ تَحْصِيلِهِمْ، وَتُرْشِدُهُمْ إِلَىٰ مَوَاطِنِ النَّقْصِ لِيَتَلَافَوْهَا، وَمَوَاضِعِ الْكَمَالِ لِيَسْتَزِيدُوا مِنْهَا، وَتَسْبِرُ قُدْرَتَهُمْ عَلَىٰ تَطْبِيقِ الْمَعْلُومَاتِ وَالْإِفَادَةِ مِنْهَا وَقْتَ الْحَاجَةِ... وَهِيَ إِلَىٰ ذَلِكَ تَقِفُ الْمُدَرِّسَ أَيْضًا عَلَىٰ مَدَىٰ تَحْصِيلِ تَلَامِيذِهِ...

وَتُيَسِّرُ لِلسُّلُطَاتِ التَّعْلِيمِيَّةِ اخْتِيَارَ أَفْضَلِ التَّلَامِيذِ لِلْقِيَامِ بِعَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ، أَوْ مُتَابَعَةِ الدِّرَاسَةِ فِي مَرْحَلَةٍ أَعْلَىٰ، أَوِ التَّوَجُّهِ إِلَىٰ دِرَاسَةٍ أَلْيَقَ.

* * *

أ ـ الاِمْتِحَانَاتُ التَّقْلِيدِيَّةُ

نَظَرًا لِهَذِهِ الْفَوَائِدِ الْجَلِيلَةِ الَّتِي عَدَدْنَاهَا لِلاِمْتِحَانَاتِ، وَاعْتِقَادًا جَازِمًا بِضَرُورَتِهَا، وَإِزَاءَ عَجْزِ الاِمْتِحَانَاتِ الشَّفَهِيَّةِ عَنِ اخْتِبَارِ الأَعْدَادِ الضَّخْمَةِ الْمُتَكَاثِرَةِ مِنَ الطُّلَّابِ، لَجَأَ الْمُرَبُّونَ إِلَىٰ الاِمْتِحَانَاتِ التَّحْرِيرِيَّةِ وَوَجَدُوا فِيهَا حَلًّا لِمُشْكِلَةِ التَّعْلِيمِ...

وَكَأَنَّ يُسْرَ إِجْرَاءِ هَذِهِ الاِمْتِحَانَاتِ قَدْ أَغْرَىٰ الْمُرَبِّينَ بِتَنْوِيعِ الاِخْتِبَارَاتِ، أَوِ الإِكْثَارِ مِنْهَا...

حَتَّىٰ غَدَتْ لَدَيْنَا امْتِحَانَاتٌ عَامَّةٌ تُعْقَدُ فِي نِهَايَةِ كُلِّ مَرْحَلَةٍ مِنَ الْمَرَاحِلِ، وَهِيَ تُؤَهِّلُ النَّاجِحَ فِيهَا لِلاِلْتِحَاقِ بِالْمَرْحَلَةِ التَّالِيَةِ، أَوِ الاِنْتِقَالِ إِلَىٰ مَيْدَانِ الْعَمَلِ...

وَامْتِحَانَاتٌ شَهْرِيَّةٌ أَوْ فَصْلِيَّةٌ تُجْرَىٰ خِلَالَ السَّنَةِ الدِّرَاسِيَّةِ، وَتُجْمَعُ دَرَجَاتُهَا مَعَ دَرَجَاتِ الاِمْتِحَانِ الاِنْتِقَالِيِّ.

وَامْتِحَانَاتٌ انْتِقَالِيَّةٌ تُجْرَىٰ فِي نِهَايَةِ كُلِّ سَنَةٍ مِنْ سَنَوَاتِ الْمَرْحَلَةِ ، وَتُؤَهِّلُ النَّاجِحَ فِيهَا لِلانْتِقَالِ إِلَىٰ السَّنَةِ التَّالِيَةِ ...

وَأَحْيَانًا امْتِحَانَاتُ الْقَبُولِ فِي مَرْحَلَةٍ جَدِيدَةٍ ، عِنْدَمَا يَجْتَازُ الطُّلَّابُ الْمَرْحَلَةَ السَّابِقَةَ مِنْ غَيْرِ امْتِحَانٍ ...

وَأَحْيَانًا أُخْرَىٰ امْتِحَانَاتٌ لِلْقَبُولِ فِي وَظِيفَةٍ مِنَ الْوَظَائِفِ ، وَكُلُّهَا اخْتِبَارَاتٌ تَحْرِيرِيَّةٌ .

أَمَّا الِاخْتِبَارَاتُ الشَّفَهِيَّةُ ؛ فَجَعَلَتْ تَخْتَفِي شَيْئًا فَشَيْئًا مِنْ دُنْيَا التَّعْلِيمِ ... حَتَّىٰ غَدَتِ امْتِحَانَاتُ الْمُطَالَعَةِ وَالْمَحْفُوظَاتِ تَحْرِيرِيَّةً أَيْضًا فِي أَكْثَرِ الْمَدَارِسِ ، وَهُوَ أَمْرٌ يَدْعُو إِلَىٰ الدَّهْشَةِ وَيُثِيرُ الْعَجَبَ .

وَقَدْ رُوعِيَ فِي ذَٰلِكَ جَانِبُ الْأُسْتَاذِ أَكْثَرَ مِمَّا رُوعِيَتْ مَصْلَحَةُ الْمَعْرِفَةِ ؛ فَكَأَنَّمَا وُجِدَ الِامْتِحَانُ لِرَاحَةِ الْمُدَرِّسِينَ لَا لِاخْتِبَارِ التَّلَامِيذِ .

وَلَمْ يَمْضِ طَوِيلُ وَقْتٍ عَلَىٰ فَرْحَةِ الْمُرَبِّينَ بِاتِّخَاذِ الِاخْتِبَارَاتِ التَّحْرِيرِيَّةِ أَدَاةً لِلِامْتِحَانِ ، وَوَضْعِ أَنْظِمَتِهَا وَتَقْعِيدِ قَوَاعِدِهَا ، حَتَّىٰ أَخَذُوا يَضِيقُونَ بِهَا ذَرْعًا وَيُوسِعُونَهَا تَجْرِيحًا وَعَيْبًا ...

فَقَدْ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهَا الدَّوَاءُ فَمَا لَبِثُوا أَنْ اكْتَشَفُوا أَنَّهَا الدَّاءُ، وَأَنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَجِدُوا لَهَا عِلَاجًا قَبْلَ أَنْ تَغْتَالَ التَّعْلِيمَ وَتَقْضِيَ عَلَيْهِ.

وَلَمْ يَكُنِ الْمُرَبُّونَ مُغَالِينَ فِي حَمْلَتِهِمُ الْقَاسِيَةِ الْعَنِيفَةِ عَلَىٰ الِامْتِحَانَاتِ التَّقْلِيدِيَّةِ بِعَامَّةٍ أَوِ التَّحْرِيرِيَّةِ مِنْهَا بِخَاصَّةٍ.

وَقَدْ كَانَ السَّبَبُ فِي هَذَا الِانْقِلَابِ الْكَبِيرِ:

- اخْتِلَافُ النَّظْرَةِ إِلَىٰ الْمَدْرَسَةِ وَمُهِمَّتِهَا مِنْ جِهَةٍ.
- وَوُضُوحُ الرُّؤْيَةِ لِأَهْدَافِ التَّرْبِيَةِ مِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ.
- وَصِحَّةُ النَّظْرَةِ إِلَىٰ مَكَانَةِ الِامْتِحَانَاتِ فِي الْعَمَلِيَّةِ التَّرْبَوِيَّةِ مِنْ جِهَةٍ ثَالِثَةٍ.
- ثُمَّ وَاقِعُ الِامْتِحَانَاتِ مِنْ جِهَةٍ رَابِعَةٍ.

فَالْمَدْرَسَةُ لَمْ تَبْقَ عِنْدَهُمْ مَكَانًا لِنَقْلِ الْمَعْلُومَاتِ مِنَ الْكُتُبِ وَحَشْوِهَا فِي الْأَذْهَانِ، وَإِنَّمَا هِيَ مَصْنَعُ الْأُمَّةِ الْعَظِيمُ الَّذِي يَصْنَعُ لَهَا رِجَالَ غَدِهَا الْمَأْمُولِ؛ عَقْلِيًّا وَرُوحِيًّا وَجَسَدِيًّا عَلَىٰ هَدْيٍ مِنْ مُعْتَقَدَاتِهَا، وَبِوَحْيٍ مِنْ مُثُلِهَا...

وَهَدَفُ التَّرْبِيَةِ هُوَ مُسَاعَدَةُ النَّاشِئِينَ عَلَىٰ النُّمُوِّ الْكَامِلِ جَسَدِيًّا وَعَقْلِيًّا وَرُوحِيًّا وَاجْتِمَاعِيًّا ، وَتَوْجِيهُ هَذَا النُّمُوِّ تَوْجِيهًا يَجْعَلُ مِنَ الْمُتَعَلِّمِ إِنْسَانًا نَافِعًا بِكُلِّ مَا فِي كَلِمَةِ النَّفْعِ مِنْ مَعْنًى .

الْمَفَاهِيمُ الأَسَاسِيَّةُ لِلامْتِحَانَاتِ :

أَوَّلاً : الِامْتِحَانَاتُ أَدَاةٌ لِخِدْمَةِ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ ، وَوَسِيلَةٌ لِلْحُكْمِ الصَّحِيحِ عَلَىٰ مَوَاهِبِ الطُّلَّابِ وَاسْتِعْدَادَاتِهِمْ وَمَدَىٰ تَحْصِيلِهِمْ ، وَالْقُدُرَاتِ وَالْمَهَارَاتِ الَّتِي اكْتَسَبُوهَا مِنْ دِرَاسَاتِهِمْ ، وَاسْتِخْدَامِ ذَلِكَ كُلِّهِ فِي تَوْجِيهِهِمْ إِلَىٰ مَا خُلِقُوا لَهُ .

ثَانِيًا : أَنَّهَا تَكْشِفُ عَنْ الِاسْتِعْدَادَاتِ الْفِطْرِيَّةِ عِنْدَ كُلِّ نَاشِئٍ ، وَالْمَهَارَاتِ الْمُكْتَسَبَةِ وَالْمَعْلُومَاتِ الْمُحَصَّلَةِ ...

وَذَلِكَ لِلْحُكْمِ عَلَىٰ صَلَاحِهِمْ لِمُتَابَعَةِ الْمَرْحَلَةِ التَّالِيَةِ مِنَ التَّعْلِيمِ وَتَوْجِيهِهِمْ إِلَىٰ الْمِهْنَةِ الَّتِي يَصْلُحُونَ لَهَا ، أَوْ وَضْعِهِمْ فِي الْعَمَلِ الْمُلَائِمِ لَهُمْ .

ثَالِثًا : أَنَّهَا وَسِيلَةٌ لِخِدْمَةِ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ بِقَصْدِ الْكَشْفِ عَنْ الِاسْتِعْدَادَاتِ ، وَمَدَىٰ الِاسْتِفَادَةِ مِنْهَا ، وَتَوْجِيهِهِمْ إِلَىٰ مَا يُحِبُّونَهُ .

عُيُوبُ الِامْتِحَانَاتِ التَّقْلِيدِيَّةِ:

لَقَدْ نَظَرَ الْمُرَبُّونَ إِلَىٰ الِامْتِحَانَاتِ فِي ضَوْءِ هَذِهِ الْمَفْهُومَاتِ الثَّلَاثَةِ، وَفِي ضَوْءِ وَاقِعِهَا الَّذِي تُجْرَىٰ فِيهِ فَوَجَدُوهَا لَا تُحَقِّقُ الْغَرَضَ الَّذِي وُجِدَتْ مِنْ أَجْلِهِ، وَإِنَّمَا غَدَتْ سَيِّدًا لِلتَّعْلِيمِ مِنْ حَيْثُ كَانَ يَجِبُ عَلَيْهَا أَنْ تَبْقَىٰ خَادِمًا لَهُ ... فَوَظِيفَةُ التَّعْلِيمِ الَّتِي لَا وَظِيفَةَ لَهُ سِوَاهَا إِنَّمَا هِيَ تَيْسِيرُ سَائِرِ السُّبُلِ لِلْمُتَعَلِّمِ حَتَّىٰ تَتَكَوَّنَ مِنْهُ شَخْصِيَّةٌ نَافِعَةٌ ...

وَهَذَا الْغَرَضُ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا إِذَا امْتَزَجَتِ الْمَوَادُّ الْعِلْمِيَّةُ بِالْعَقْلِ، وَتَفَاعَلَتْ مَعَهُ وَأَثَّرَتْ فِيهِ وَأَثَّرَ فِيهَا؛ حَتَّىٰ تَغْدُوَ جُزْءًا مِنْ نَسِيجِهِ، فَيَنْمُوَ بِمَا اكْتَسَبَهُ مِنْهَا، وَيَغْدُوَ بَعْدَ امْتِصَاصِهَا أَقْدَرَ عَلَىٰ التَّصَرُّفِ فِي الْمُشْكِلَاتِ الَّتِي تَعْرِضُ لَهُ، ثُمَّ يُؤَثِّرُ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي اتِّجَاهَاتِ الْإِنْسَانِ النَّفْسِيَّةِ، وَيَصْبُغُ بِهِ نَظْرَتَهُ إِلَىٰ الْحَيَاةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَشْعُرَ.

وَلَقَدْ كَانَ لِلِامْتِحَانَاتِ الْأَثَرُ الْأَكْبَرُ فِي انْحِرَافِ التَّعْلِيمِ عَنْ غَايَاتِهِ وَابْتِعَادِهِ عَنْ تَحْقِيقِ أَهْدَافِهِ؛ فَهُوَ لَا يُثَقِّفُ التَّفْكِيرَ وَلَا يُنَمِّيهِ، وَلَا يُرَبِّي الِابْتِكَارَ وَسَلَامَةَ الْحُكْمِ وَصِحَّةَ النَّقْدِ،

وَالِاسْتِقْلَالَ فِي الرَّأْيِ ، وَحُبُّ الْعِلْمِ وَتَقْدِيسَ الْحَقِّ ، وَالشُّعُورَ بِالْوَاجِبِ ، وَلَا يُكَوِّنُ الشَّخْصِيَّةَ الَّتِي تَتَخَلَّقُ بِخُلُقِ الْكِفَاحِ .

وَالسِّرُّ فِي ذَلِكَ هُوَ أَنَّنَا جَعَلْنَا الِامْتِحَانَاتِ غَايَةَ التَّعْلِيمِ ، وَالِامْتِحَانَاتُ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْكُمَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ الَّذِي أَشَرْنَا إِلَيْهِ ... وَإِنَّمَا تَحْكُمُ عَلَىٰ مِقْدَارِ تَحْصِيلِ الطَّالِبِ فِي جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِ الْمَعْرِفَةِ حُكْمًا هُوَ أَقْرَبُ إِلَىٰ قِيَاسِ الذَّاكِرَةِ مِنْهُ إِلَىٰ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ .

وَكَانَ السَّبَبُ فِي شَنِّ الْحَمْلَةِ الْقَاسِيَةِ عَلَىٰ الِامْتِحَانَاتِ هُوَ عَجْزُهَا عَنْ تَحْقِيقِ الْغَايَاتِ الَّتِي وُضِعَتْ لَهَا ، وَصَيْرُورَتُهَا سَيِّدًا لِلتَّعْلِيمِ مِنْ حَيْثُ كَانَ عَلَيْهَا أَنْ تَبْقَىٰ خَادِمًا ؛ فَالْهَدَفُ مِنَ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ إِنَّمَا هُوَ مُسَاعَدَةُ الْأَجْيَالِ النَّاشِئَةِ عَلَىٰ النُّمُوِّ الْمُتَكَامِلِ عَقْلِيًّا وَرُوحِيًّا وَجَسَدِيًّا ؛ حَتَّىٰ يَغْدُوَ كُلُّ فَرْدٍ مِنْهَا إِنْسَانًا صَالِحًا لِلْحَيَاةِ ، نَافِعًا فِي الْمُجْتَمَعِ ... وَمُهِمَّةُ الِامْتِحَانَاتِ إِنَّمَا هِيَ الْكَشْفُ عَنِ الِاسْتِعْدَادَاتِ الْفِطْرِيَّةِ لَدَىٰ النَّاشِئِ ، وَالْوُقُوفُ عَلَىٰ الْمَهَارَاتِ الَّتِي اكْتَسَبَهَا ، وَقِيَاسُ الْمَعْلُومَاتِ الَّتِي حَصَلَ عَلَيْهَا ... وَذَلِكَ لِلْحُكْمِ عَلَىٰ صَلَاحِهِ

لِلانْتِقَالِ مِنْ فِرْقَةٍ إِلَىٰ فِرْقَةٍ ، أَوْ مُتَابَعَةِ الْمَرْحَلَةِ التَّالِيَةِ ، أَوْ تَوْجِيهِهِ إِلَىٰ الْمِهْنَةِ الَّتِي يُسِّرَ لَهَا ، أَوْ إِلْحَاقِهِ بِالْعَمَلِ الْمُلَائِمِ لَهُ .

وَالِامْتِحَانَاتُ بِشَكْلِهَا التَّقْلِيدِيِّ لَا تَفِي بِذَلِكَ كُلِّهِ وَلَاجُلِّهِ ؛ فَهِيَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُعْنَىٰ إِلَّا بِمَا يُمْكِنُ أَنْ يُدَوَّنَ تَحْرِيرِيًّا ... وَلِذَا فَإِنَّهَا لَا تَصْلُحُ لِقِيَاسِ الِاسْتِعْدَادَاتِ الْفِطْرِيَّةِ ، وَلَا الْمَهَارَاتِ الْمُكْتَسَبَةِ ، وَلَا الشَّخْصِيَّةِ الْمُتَكَامِلَةِ النَّاضِجَةِ ، وَإِنَّمَا تَقِيسُ مِقْدَارَ تَحْصِيلِ الطَّالِبِ مِنْ جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِ الْمَعْرِفَةِ ؛ قِيَاسًا هُوَ أَقْرَبُ إِلَىٰ قِيَاسِ الذَّاكِرَةِ مِنْهُ إِلَىٰ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ .

وَمَا دَامَتْ الِامْتِحَانَاتُ كَذَلِكَ ؛ فَسَتَظَلُّ عَقَبَةً فِي تَارِيخِ التَّرْبِيَةِ النَّافِعَةِ ، وَأَدَاةً غَيْرَ صَالِحَةٍ إِلَّا لِقِيَاسِ الْجَانِبِ الْأَتْفَهِ وَالْأَقَلِّ مِنَ الطَّالِبِ ، وَذَلِكَ يُفْضِي إِلَىٰ تَصْنِيفِ الطُّلَّابِ تَصْنِيفًا خَاطِئًا ، وَالْحُكْمِ عَلَيْهِمْ حُكْمًا نَاقِصًا مَحْدُودًا ... وَلِي فِي ذَلِكَ مِثَالٌ مِنْ وَاقِعِ تَجْرِبَتِي كَطَالِبٍ عِنْدَمَا كُنَّا طُلَّابًا فِي الْمَرْحَلَةِ الثَّانَوِيَّةِ : كَانَ مَعَنَا زَمِيلٌ كَرِيمُ الْخُلُقِ كَثِيرُ الدَّأْبِ شَدِيدُ الْحِرْصِ عَلَىٰ الْفَائِدَةِ ؛ وَلَكِنَّهُ كَانَ قَلِيلَ الذَّكَاءِ تَغْلِبُ

عَلَيْهِ الْغَفْلَةُ . وَكُنَّا فِتْيَانًا نَتَوَثَّبُ نَشَاطًا وَنَتَدَفَّقُ حَيَوِيَّةً ، وَكَانَ لَهُ وَقَارُ الشُّيُوخِ ، فَكُنَّا إِذَا انْطَلَقَتْ مِنَّا كَلِمَةٌ أَوْ نُكْتَةٌ عَابِرَةٌ دَاخِلَ الدَّرْسِ بَادَرَنَا قَائِلاً بِاللَّهْجَةِ الْعَامِّيَّةِ :

« اسْكُتُوا بِدْنَا نَسْتَفَادْ » .

فَكُنَّا نُقَدِّرُ حُسْنَ نِيَّتِهِ وَنَسْكُتُ نُزُولاً عِنْدَ رَغْبَتِهِ . وَفِي نِهَايَةِ الْمَرْحَلَةِ الدِّرَاسِيَّةِ ؛ جَرَىٰ الِامْتِحَانُ الْمَعْهُودُ الَّذِي يَقِيسُ الْمَلَكَاتِ اللَّفْظِيَّةَ ، وَيُقَدِّرُ ذَاكِرَةَ الْأَسْمَاءِ وَالْأَرْقَامِ وَالْعِبَارَاتِ الْمَحْفُوظَةِ ، فَحَكَمَتْ لَهُ الِامْتِحَانَاتُ عَلَيْنَا جَمِيعًا ، وَقَدَّمَتْهُ مِنْ حَيْثُ كَانَ يَجِبُ أَنْ يَتَأَخَّرَ ، وَأَخَّرَتْ غَيْرَهُ مِنْ حَيْثُ كَانَ يَجِبُ أَنْ يَتَقَدَّمَ ...

وَمَضَيْنَا إِلَىٰ سَبِيلِنَا نَحْنُ وَهُوَ كُلٌّ سَارَ فِي دَرْبِهِ ، وَمَا عُدْتُ أَسْمَعُ لَهُ اسْمًا ، وَمَا عُدْتُ أَذْكُرُهُ إِلَّا نَادِرًا ، أَمَّا الرِّفَاقُ الْآخَرُونَ فَقَدْ ظَلُّوا أَحْيَاءً فِي الذِّهْنِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَحْيَاءً فِي الْحَيَاةِ فَغَدَا فِيهِمُ الْحُقُوقِيُّ اللَّامِعُ ، وَالْعَالِمُ النَّافِعُ ، وَأُسْتَاذُ الْجَامِعَةِ الَّذِي يُشَارُ إِلَيْهِ بِالْبَنَانِ .

ثُمَّ إِنَّ الِامْتِحَانَاتِ تَنْظُرُ إِلَىٰ الْمَاضِي ، وَكَانَ عَلَيْهَا أَنْ تَنْظُرَ

إِلَىٰ الْمُسْتَقْبَلِ ، فَهِيَ تَتِمُّ غَالِبًا فِي نِهَايَةِ الْعَامِ الدِّرَاسِيِّ ؛ وَلِذَا فَهِيَ لَا تُسَاعِدُ عَلَىٰ مَعْرِفَةِ الضَّعْفِ فِي حِينِهِ ، لِتَدَارُكِهِ وَتَلَافِيهِ .

وَقَدْ أَصْبَحَ التَّلَامِيذُ يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الِامْتِحَانَاتِ عَلَىٰ أَنَّهَا غَايَةٌ لِلْعَمَلِ التَّعْلِيمِيِّ ؛ فَغَدَتْ عِنْدَهُمْ آخِرَ مَجَالٍ يَحْتَاجُونَ فِيهِ إِلَىٰ الْمَعْلُومَاتِ الَّتِي تَلَقَّوْهَا ، فَهُمْ لَا يَلْبَثُونَ أَنْ يَنْسَوْهَا بَعْدَ الِامْتِحَانِ ، لِأَنَّهَا تَكُونُ قَدْ أَدَّتْ وَظِيفَتَهَا حَتَّىٰ لَكَأَنَّ آخِرَ جَرَسٍ يُقْرَعُ فِي الِامْتِحَانَاتِ يُؤَدِّي وَظِيفَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا : الْإِعْلَانُ عَنِ انْتِهَاءِ الِامْتِحَانِ ...

وَالثَّانِيَةُ : بِدَايَةُ النِّسْيَانِ .

ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُدَرِّسِينَ فِي صُفُوفِ الشَّهَادَاتِ يَصْرِفُونَ جُلَّ هَمِّهِمْ إِلَىٰ الْعِنَايَةِ بِالْحَقَائِقِ وَالْمَعْلُومَاتِ الَّتِي تُعْنَىٰ بِهَا الِامْتِحَانَاتُ ؛ دُونَ النَّظَرِ إِلَىٰ أَثَرِهَا فِي نُفُوسِ الطُّلَّابِ ، أَوْ إِلَىٰ قِيمَتِهَا فِي تَكْوِينِهِمْ .

وَأَصْبَحَ الطُّلَّابُ لَا يَتَحَمَّسُونَ لِلْقِرَاءَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ النَّافِعَةِ الَّتِي تُغْنِي تَجَارِبَهُمْ ، أَوْ لِلِاطِّلَاعِ الْوَاسِعِ الَّذِي يُرَحِّبُ[1]

(١) يرحب : يوسّع مداركهم .

آفَاقَهُمْ ، وَإِنَّمَا جَعَلُوا يُرَكِّزُونَ اهْتِمَامَهُمْ كُلَّهُ عَلَىٰ الْقِرَاءَاتِ الْمُحَدَّدَةِ الَّتِي تُتِيحُ لَهُمُ اجْتِيَازَ الِامْتِحَانَاتِ بِسَلَام ... فَمَنْ مِنَّا مَعْشَرَ الْمُدَرِّسِينَ مَنْ لَمْ يَسْتَوْقِفْهُ طُلَّابُهُ خِلَالَ الْحِصَصِ عَشَرَاتِ الْمَرَّاتِ لِيَسْأَلُوهُ عَمَّا يَقُولُهُ :

أَهُوَ دَاخِلٌ فِي الِامْتِحَانِ أَمْ لَا ؟ ...

فَإِنْ أَجَابَ بِالْإِيجَابِ انْتَبَهَ التَّلَامِيذُ إِلَىٰ مَا يَقُولُهُ وَأَحَلُّوهُ مَكَانًا فِي أَذْهَانِهِمْ مَهْمَا كَانَ تَافِهًا ... وَإِنْ كَانَ الْجَوَابُ بِالنَّفْيِ نَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ مَهْمَا كَانَ قَيِّمًا نَافِعًا .

لَقَدْ أُتِيحَ لِي أَنْ أُجْرِيَ اخْتِبَارًا سَرِيعًا لِأَرْبَعِينَ طَالِبًا مِنْ طُلَّابِ السَّنَةِ النِّهَائِيَّةِ فِي أَحَدِ الْأَقْسَامِ الَّتِي يَتَخَصَّصُ طُلَّابُهَا فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَكَانَتِ الْأَسْئِلَةُ وَالْإِجَابَاتُ عَلَىٰ الْوَجْهِ التَّالِي :

ـ مَنْ مِنكُمْ قَرَأَ شَيْئًا أَيَّ شَيْءٍ فِي كِتَابِ « الْأَغَانِي » وَلَوْ مَرَّةً وَاحِدَةً ؟ ...

فَكَانَ عَدَدُ الَّذِينَ أَجَابُوا بِالْإِيجَابِ أَرْبَعَةً .

ـ مَنْ مِنكُمُ اسْتَعَانَ وَلَوْ مَرَّةً وَاحِدَةً بِكِتَابِ « لِسَانُ الْعَرَبِ » ؟ ... فَكَانُوا أَرْبَعَةً أَيْضًا .

ـ مَنْ مِنْكُمْ رَأَىٰ كِتَابَ «الْمُغْنِي» لِابْنِ هِشَامٍ؟ ... فَكَانُوا أَرْبَعَةً أَيْضًا.

ـ مَنْ مِنْكُمْ رَأَىٰ كِتَابَيْ «أَسْرَارُ الْبَلَاغَةِ» أَوْ «دَلَائِلُ الْإِعْجَازِ» لِعَبْدِ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيِّ؟ ... فَكَانُوا سِتَّةً.

ـ مَنْ مِنْكُمْ اسْتَعَانَ وَلَوْ لِمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ «بِتَاجِ الْعَرُوسِ»؟ ... فَلَمْ يُوجَدْ أَحَدٌ بَيْنَهُمْ.

إِنَّ الطُّلَّابَ السِّتَّةَ وَالثَّلَاثِينَ الَّذِينَ لَمْ يَرَوُا الْأَغَانِيَ، وَلِسَانَ الْعَرَبِ، وَمُغْنِي اللَّبِيبِ ... سَيَتَخَرَّجُونَ مِنْ قِسْمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ كُلُّهُمْ ـ أَوْ جُلُّهُمْ، وَسَيُقَدِّمُونَ لِأُمَّتِهِمْ بِشَهَادَةٍ مِنْ مُدَرِّسِيهِمْ عَلَىٰ أَنَّهُمْ تَخَصَّصُوا فِي لُغَتِهِمْ ...

وَلَنْ يُؤَثِّرَ فِي نَجَاحِهِمْ عَدَمُ رُؤْيَتِهِمْ لِأَهَمِّ الْمَصَادِرِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَوْسَعِهَا وَأَكْبَرِهَا عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ، وَلَنْ يَكُونَ حَظُّ الطُّلَّابِ الْأَرْبَعِينَ الَّذِينَ لَمْ يَرَوْا «تَاجَ الْعَرُوسِ» أَقَلَّ مِنْ سَابِقِيهِمْ فِي النَّجَاحِ.

وَجَهْلُ الطُّلَّابِ بِهَذِهِ الْمَرَاجِعِ يَرْجِعُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِنَ الْأَسْبَابِ أَهَمُّهَا الِامْتِحَانَاتُ.

وَلَيْسَتْ هَذِهِ جَمِيعَ عُيُوبِ الِامْتِحَانَاتِ وَإِنَّمَا لَهَا عُيُوبٌ أُخْرَىٰ ... فَقَدْ أَصْبَحَ التَّلَامِيذُ يُهْمِلُونَ كَثِيرًا مِمَّا حَبَاهُمُ اللَّهُ مِنْ مَلَكَاتٍ وَمَهَارَاتٍ إِذَا كَانَتْ لَا تُعْنَىٰ بِهَا الِامْتِحَانَاتُ ...

ثُمَّ إِنَّهُمْ أَصْبَحُوا يَشْعُرُونَ ـ بِسَبَبِ هَذِهِ الِامْتِحَانَاتِ ـ بِالْقَلَقِ وَتَوَتُّرِ الْأَعْصَابِ ، مِمَّا أَوْدَىٰ بِصِحَّةِ بَعْضِهِمْ جَسَدِيًّا وَنَفْسِيًّا .

وَالْأَدْهَىٰ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الِامْتِحَانَاتِ قَدْ أَفْسَدَتْ أَخْلَاقَ كَثِيرٍ مِنَ الطُّلَّابِ ؛ حَيْثُ اسْتَبَاحُوا الْغِشَّ وَالِاحْتِيَالَ مَا دَامَا يُؤَدِّيَانِ إِلَىٰ النَّجَاحِ فِيهَا .

وَقَدْ أَصْبَحَتْ نَتَائِجُ الِامْتِحَانَاتِ ذَاتَ أَهَمِّيَّةٍ كَبِيرَةٍ فِي حَيَاةِ الطُّلَّابِ ؛ فَصَارَ الطَّالِبُ النَّاجِحُ يُنْظَرُ إِلَيْهِ نَظْرَةَ إِكْبَارٍ ، وَالتِّلْمِيذُ الرَّاسِبُ يُنْظَرُ إِلَيْهِ نَظْرَةَ إِشْفَاقٍ وَازْدِرَاءٍ ... وَقَدْ يُعَامَلُ فِي مَنْزِلِهِ مُعَامَلَةً تَنَالُ مِنْ كَرَامَتِهِ وَتَقْتُلُ الْبَقِيَّةَ الْبَاقِيَةَ مِنْ ثِقَتِهِ بِنَفْسِهِ ... مِمَّا يَكُونُ لَهُ أَكْبَرُ الْآثَارِ عَلَىٰ صِحَّتِهِ النَّفْسِيَّةِ وَالْجَسَدِيَّةِ ، وَكَثِيرًا مَا يُؤَدِّي بِهِ إِلَىٰ كُرْهِ الْعِلْمِ وَالِابْتِعَادِ عَنْ

دُورِهِ ... مَعَ الْعِلْمِ أَنَّ هَذَا الْحُكْمَ الَّذِي صَدَرَ بِإِخْفَاقِهِ إِنَّمَا هُوَ نَاقِصٌ ...

فَكَمْ مِنْ طَالِبٍ نَجَحَ فِي الِامْتِحَانَاتِ غَيْرَ أَنَّهُ أَخْفَقَ فِي امْتِحَانِ الْحَيَاةِ ...

وَكَمْ مِنْ طَالِبٍ رَسَبَ فِيهَا غَيْرَ أَنَّهُ نَجَحَ هُنَاكَ ...

وَامْتِحَانُ الْحَيَاةِ أَدَقُّ مِقْيَاسًا وَأَصْدَقُ دَلَالَةً.

ثُمَّ إِنَّ الِامْتِحَانَاتِ بِصُورَتِهَا الْمَعْرُوفَةِ تَتَأَلَّفُ مِنْ عَدَدٍ صَغِيرٍ مِنَ الْأَسْئِلَةِ لَا تَخْتَبِرُ فِي الْغَالِبِ إِلَّا قَدْرًا يَسِيرًا مِنَ الْمَادَّةِ الْمُقَرَّرَةِ، وَمِنْ هُنَا كَانَتْ دَرَجَةُ الطَّالِبِ فِي الِامْتِحَانِ إِنَّمَا هِيَ دَرَجَةٌ عَلَىٰ ذَلِكَ الْجُزْءِ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ الِاخْتِبَارُ، وَلَيْسَتْ عَلَىٰ الْمَادَّةِ الْمَدْرُوسَةِ كُلِّهَا... مِمَّا يَجْعَلُ لِعَامِلِ الصُّدْفَةِ، أَوِ الْحَظِّ أَثَرًا كَبِيرًا فِي تَقْدِيرِ الدَّرَجَةِ ...

فَكَمْ مِنْ طَالِبٍ وَعَىٰ جُلَّ مِنْهَاجِهِ وَفَاتَتْهُ بَعْضُ الْمَسَائِلِ؛ فَجَاءَتِ الْأَسْئِلَةُ مِمَّا فَاتَهُ ...

وَكَمْ مِنْ طَالِبٍ أَهْمَلَ جُلَّ مِنْهَاجِهِ وَوَعَىٰ بَعْضَ مَسَائِلِهِ؛ فَجَاءَتِ الْأَسْئِلَةُ مِمَّا وَعَاهُ ...

فَظَهَرَ الْأَوَّلُ بِمَظْهَرِ الْمُخْفِقِ، وَبَدَا الثَّانِي فِي صُورَةِ النَّاجِحِ، وَهُوَ أَمْرٌ لَا يُمَثِّلُ الْوَاقِعَ.

ثُمَّ إِنَّ تَقْدِيرَ الدَّرَجَاتِ فِي هَذِهِ الِامْتِحَانَاتِ يَتَأَثَّرُ تَأَثُّرًا كَبِيرًا بِمُسْتَوَىٰ عِلْمِ الْأُسْتَاذِ الْمُصَحِّحِ، وَصِدْقِ حِسِّهِ فِي التَّقْدِيرِ، وَمَا وَضَعَهُ فِي ذِهْنِهِ مِنْ مُسْتَوَيَاتٍ لِلْإِجَابَةِ الْوَافِيَةِ...

فَمَا هُوَ وَافٍ فِي نَظَرِي قَدْ لَا يَكُونُ وَافِيًا فِي نَظَرِ الْآخَرِينَ، وَمَا هُوَ كَافٍ عِنْدَهُمْ قَدْ لَا يَكُونُ كَافِيًا عِنْدِي.

وَحَتَّىٰ حِينَ يُوضَعُ بَيْنَ يَدَيِ الْمُصَحِّحِينَ نَمُوذَجٌ لِلْإِجَابَةِ الْكَامِلَةِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَحُولُ دُونَ التَّفَاوُتِ بَيْنَ الْمُدَقِّقِينَ فِي تَقْدِيرِهِ لِلدَّرَجَاتِ...

ذَلِكَ لِأَنَّ أَسْئِلَةَ الِامْتِحَانَاتِ التَّقْلِيدِيَّةِ تَغْلِبُ عَلَىٰ تَدْقِيقِهَا الصِّفَةُ الذَّاتِيَّةُ، فَكَثِيرًا مَا يَسْتَحِيلُ اتِّفَاقُ اثْنَيْنِ مِنَ الْمُصَحِّحِينَ عَلَىٰ تَقْدِيرِ دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ لِإِجَابَةِ الطَّالِبِ...

بَلْ إِنَّ الْمُصَحِّحَ الْوَاحِدَ قَدْ يَخْتَلِفُ رَأْيُهُ فِي الْوَرَقَةِ الْوَاحِدَةِ إِذَا عُرِضَتْ عَلَيْهِ فِي أَوْقَاتٍ مُتَبَاعِدَةٍ، وَقَدْ أَجْرَيْتُ عَلَىٰ

ذَلِكَ طَائِفَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ التَّجارِبِ مِمَّا جَعَلَ هَذَا الْأَمْرَ حَقِيقَةً ثَابِتَةً عِنْدِي .

وَمِنَ الطَّرِيفِ مَا يُرْوَىٰ فِي ذَلِكَ عَمَّا حَدَثَ فِي « جَامِعَةِ كُولُمْبِيَا » حَيْثُ وَضَعَ الْأُسْتَاذُ « بِنْ وُودَ » إِجَابَةً نَمُوذَجِيَّةً لِأَسْئِلَةِ الِامْتِحَانَاتِ ، ثُمَّ ضَاعَتِ الْوَرَقَةُ بَيْنَ أَكْدَاسِ الْإِجَابَاتِ ، وَلَمَّا وَقَعَتْ فِي يَدِ أَحَدِ الْمُصَحِّحِينَ لَمْ يَمْنَحْهَا إِلَّا نِصْفَ الدَّرَجَةِ ، فَنَجَحَتْ بِالْجَهْدِ .

* * *

ب ـ الِامْتِحَانَاتُ الْـمَوْضُوعِيَّةُ

هَذِهِ الْعُيُوبُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا إِجْمَالاً وَغَيْرُهَا مِمَّا لَمْ نَذْكُرْهُ، جَعَلَتْ رِجَالَ التَّرْبِيَةِ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا عَلَىٰ أَنَّهَا أُمُّ الْمُشْكِلَاتِ التَّعْلِيمِيَّةِ، وَدَفَعَتْهُمْ إِلَىٰ أَنْ يَبْحَثُوا لَهَا عَنْ أَنْجَحِ الْحُلُولِ... وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُفَكِّرُوا أَبَدًا فِي إِلْغَائِهَا لِأَنَّهَا أَمْرٌ لَا مَنْدُوحَةَ عَنْهُ، وَلِأَنَّهَا لَيْسَتْ شَرًّا فِي ذَاتِهَا، وَإِنَّمَا جَاءَهَا الشَّرُّ مِنْ سُوءِ اسْتِعْمَالِهَا.

وَإِلَيْكَ مَا قَالَهُ وَاحِدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُرَبِّينَ الَّذِينَ يَكْرَهُونَ الِامْتِحَانَاتِ أَشَدَّ الْكُرْهِ، يَقُولُ هَذَا الْمُرَبِّي:

«إِنَّ صَدْرِي لَيَضِيقُ وَإِنَّ نَفْسِي لَتَسْخَطُ عِنْدَ سَمَاعِ اسْمِ الِامْتِحَانَاتِ وَالِاخْتِبَارَاتِ؛ فَهِيَ تَبْعَثُ فِي نَفْسِي ذِكْرَيَاتِ مَا قَاسَيْتُ مِنْهَا فِي صِغَرِي وَأَنَا طَالِبٌ، وَمَا عَانَيْتُ مِنْهَا فِي كِبَرِي، وَأَنَا أَعْكُفُ عَلَىٰ تَدْقِيقِ أَكْدَاسِ الْإِجَابَاتِ...

وَلَكِنِّي مَعَ جَمِيعِ مَا أُحِسُّ بِهِ مِنَ الضِّيقِ وَالسُّخْطِ عَلَىٰ الِامْتِحَانَاتِ ، لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَجِدَ مِنْهَا بَدِيلاً ، وَلَمْ أَسْمَعْ مِنْ أَحَدٍ أَنَّهُ وَجَدَ بَدِيلاً »[1] ...

وَهَذَاهُمُ الْبَحْثُ إِلَىٰ اكْتِشَافِ الِامْتِحَانَاتِ « الْمَوْضُوعِيَّةِ » ، فَهَبُّوا يَدْعُونَ إِلَىٰ إِحْلَالِهَا مَحَلَّ الِامْتِحَانَاتِ التَّقْلِيدِيَّةِ ؛ الَّتِي أَطْلَقُوا عَلَيْهَا اسْمَ امْتِحَانَاتِ « الْمَقَالِ » تَمْيِيزًا لَهَا مِنَ الِامْتِحَانَاتِ الْجَدِيدَةِ .

وَقَبْلَ تَحْدِيدِ مَعْنَىٰ الِامْتِحَانَاتِ « الْمَوْضُوعِيَّةِ » هَذِهِ يَحْسُنُ بِنَا أَنْ نُلِمَّ بِفَلْسَفَاتِهَا ، أَوْ إِنْ شِئْتَ فَقُلْ بِالنَّظَرِيَّةِ الَّتِي أَدَّتْ إِلَىٰ اسْتِحْدَاثِهَا ، وَمُجْمَلُ هَذِهِ الْفَلْسَفَةِ هُوَ :

أَنَّ الِامْتِحَانَاتِ أَدَاةٌ لِلْقِيَاسِ ، وَأَدَاةُ الْقِيَاسِ الصَّالِحَةُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ كَالذِّرَاعِ ، أَوِ الْمِتْرِ الَّذِي لَا يَتَغَيَّرُ فِي جَمِيعِ حَالَاتِ اسْتِعْمَالِهِ ، وَيَكُونُ ثَابِتَ النَّتَائِجِ بِحَيْثُ لَا يَتَأَثَّرُ بِأَيِّ عَامِلٍ خَارِجِيٍّ ، وَأَنْ يَكُونَ شَامِلاً بِحَيْثُ يَقِيسُ الْمَادَّةَ كُلَّهَا ...

(١) جلبرت هايت في كِتَابِهِ « فَنُّ التَّعْلِيمِ » تَرْجَمَةُ فريد أبو حديد .

وَوَجَدُوا أَنَّ أَسْئِلَةَ الْمَقَالِ الْمُتَّبَعَةَ لَيْسَتْ بِالْمِقْيَاسِ الَّذِي تَتَوَافَرُ فِيهِ هَذِهِ الشُّرُوطُ ، فَلَا بُدَّ إِذَنْ أَنْ تَكُونَ الِاخْتِبَارَاتُ مَوْضُوعِيَّةً ، وَهُمْ جَعَلُوا كَلِمَةَ « مَوْضُوعِيَّةٌ » مُقَابِلَةً لِكَلِمَةِ « ذَاتِيَّةٌ » .

فَأَسْئِلَةُ « الْمَقَالِ » التَّقْلِيدِيَّةُ تَتَحَكَّمُ بِذَاتِ الْمُصَحِّحِ فِي تَقْدِيرِ الْإِجَابَةِ عَنْهَا كَمَا رَأَيْنَا آنِفًا ، وَكَذَلِكَ ذَاتُ التِّلْمِيذِ الَّتِي تَلُوحُ أَحْيَانًا مِنْ خِلَالِ وَرَقَةِ إِجَابَتِهِ .

أَمَّا الْأَسْئِلَةُ « الْمَوْضُوعِيَّةُ » ، فَلَيْسَ لِأَيِّ مُؤَثِّرٍ خَارِجٍ عَنْهَا أَيُّ أَثَرٍ فِي تَقْدِيرِهَا ؛ إِذْ هِيَ اخْتِبَارَاتٌ تَقِيسُ مَعْرِفَةَ التَّلَامِيذِ وَفَهْمَهُمْ بِوَسَاطَةِ عَدَدٍ كَبِيرٍ جِدًّا مِنَ الْأَسْئِلَةِ الْقَصِيرَةِ ، الَّتِي تَتَطَلَّبُ إِجَابَاتٍ مُحَدَّدَةً قَصِيرَةً ، وَتَكُونُ الْإِجَابَةُ عَنْهَا فِي كَلِمَاتٍ ، أَوْ أَرْقَامٍ أَوْ رُمُوزٍ ، عَلَىٰ وَرَقَةِ الْأَسْئِلَةِ نَفْسِهَا .

وَتَمْتَازُ هَذِهِ الِامْتِحَانَاتُ ، بِأَنَّهَا تَسْتَبْعِدُ اسْتِبْعَادًا تَامًّا الْعُنْصُرَ الذَّاتِيَّ فِي تَقْدِيرِ الدَّرَجَةِ كَمَا أَشَرْنَا آنِفًا ، وَأَنَّ فِي اسْتِطَاعَتِهَا اخْتِبَارَ مَا تَعَلَّمَهُ التِّلْمِيذُ وَالْوُقُوفَ عَلَىٰ مُسْتَوَىٰ ذَكَائِهِ ، وَسُرْعَةِ تَفْكِيرِهِ ، وَدِقَّةِ مُلَاحَظَتِهِ ، وَصِحَّةِ مُحَاكَمَتِهِ ...

كَمَا يُخْتَبَرُ الدَّمُ أَوْ أَنْسِجَةُ الْجِسْمِ فِي الْمُخْتَبَرَاتِ الطِّبِّيَّةِ الَّتِي تَكْشِفُ عَلَىٰ مِئَاتِ الْمَرْضَىٰ كُلَّ يَوْمٍ، وَتُشَخِّصُ لَهُمْ عِلَلَهُمْ دُونَ أَنْ يُلْقِيَ الطَّبِيبُ الْمُحَلِّلُ نَظْرَةً عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ، أَوْ يَأْبَهَ لِمَقَامَاتِهِمْ وَأَحْسَابِهِمْ.

وَإِنَّهَا بِسَبَبٍ مِنْ كَثْرَتِهَا الَّتِي تَزِيدُ أَحْيَانًا عَلَىٰ الْمِائَةِ سُؤَالٍ، تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنَالَ الْمَادَّةَ الْمَدْرُوسَةَ كُلَّهَا بِالِاخْتِبَارِ... وَهِيَ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ كَثْرَةِ أَسْئِلَتِهَا، لَا تَسْتَغْرِقُ الْإِجَابَةُ عَنْهَا سِوَىٰ وَقْتٍ قَصِيرٍ.

كَمَا أَنَّ تَصْحِيحَهَا غَايَةٌ فِي الْيُسْرِ وَفِي اسْتِطَاعَةِ أَيِّ إِنْسَانٍ مُتَوَسِّطِ الثَّقَافَةِ سَوَاءٌ أَكَانَ مُخْتَصًّا أَمْ غَيْرَ مُخْتَصٍّ تَدْقِيقُهَا؛ لِأَنَّ تَقْدِيرَ إِجَابَتِهَا لَا يَحْتَمِلُ اجْتِهَادًا، أَوْ إِعْمَالَ نَظَرٍ أَوْ فِكْرٍ.

أَنْوَاعُ الِاخْتِبَارَاتِ الْمَوْضُوعِيَّةِ:

وَلِلِاخْتِبَارَاتِ «الْمَوْضُوعِيَّةِ» أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ يَحْرِصُ الْمُرَبُّونَ عَلَىٰ أَنْ تَشْتَمِلَ وَرَقَةُ الْأَسْئِلَةِ عَلَيْهَا كُلِّهَا أَوْ جُلِّهَا. وَأَشْهَرُ أَنْوَاعِ الِاخْتِبَارَاتِ التَّالِيَةُ:

١ ـ اخْتِبَارُ كُلٍّ مِنَ الْـخَطَأِ وَالصَّوَابِ :

وَيَتَأَلَّفُ مِنْ طَائِفَةٍ مِنَ الْعِبَارَاتِ بَعْضُهَا صَوَابٌ وَبَعْضُهَا خَطَأٌ ، وَيُطْلَبُ مِنَ التِّلْمِيذِ أَنْ يَضَعَ أَمَامَ الْعِبَارَةِ الصَّحِيحَةِ حَرْفَ (ص) ، وَأَمَامَ الْخَاطِئَةِ حَرْفَ (خ) .

٢ ـ اخْتِبَارُ الصَّوَابِ وَحْدَهُ :

وَيَكُونُ عَلَىٰ صُورَتَيْنِ :

• إِحْدَاهُمَا إِيرَادُ سُؤَالٍ تُدَوَّنُ تَحْتَهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْإِجَابَاتِ ، بِحَيْثُ تَكُونُ وَاحِدَةٌ مِنْهَا صَحِيحَةً ، وَمَا عَدَاهَا خَطَأٌ ، وَيُطْلَبُ مِنَ التِّلْمِيذِ وَضْعُ خَطٍّ تَحْتَ الْإِجَابَةِ الصَّحِيحَةِ .

• أَمَّا الصُّورَةُ الثَّانِيَةُ فَتَكُونُ بِإِيرَادِ عِبَارَةٍ نَاقِصَةٍ يُدَوَّنُ تَحْتَهَا طَائِفَةُ التَّكْمِلَاتِ ، بِحَيْثُ تَكُونُ وَاحِدَةٌ مِنْهَا صَحِيحَةً ، وَمَا عَدَاهَا خَطَأٌ ، وَيُطْلَبُ مِنَ التِّلْمِيذِ الْإِشَارَةُ إِلَىٰ التَّكْمِلَةِ الصَّحِيحَةِ .

٣ ـ اخْتِبَارُ الرَّبْطِ وَالْـمُزَاوَجَةِ :

وَيَتَأَلَّفُ مِنْ طَائِفَةٍ مِنَ الْعِبَارَاتِ تُرَتَّبُ وَتُرَقَّمُ فِي عَمُودَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ ، وَيُطْلَبُ مِنَ التِّلْمِيذِ أَنْ يَخْتَارَ لِكُلِّ عِبَارَةٍ مِنَ الْعَمُودِ

الْأَوَّلِ مَا يُنَاسِبُهَا وَيُكَمِّلُ مَعْنَاهَا مِنْ عِبَارَاتِ الْعَمُودِ الثَّانِي .

٤ ـ اخْتِبَارُ التَّعَرُّفِ :

وَيَتَأَلَّفُ مِنْ عِدَّةِ كَلِمَاتٍ تُشِيرُ إِلَىٰ مُصْطَلَحَاتٍ أَوْ أَعْلَامٍ ، أَوْ أَحْدَاثٍ ، أَوْ خَصَائِصَ ، وَيُطْلَبُ مِنَ التِّلْمِيذِ وَضْعُ خَطٍّ تَحْتَ الْكَلِمَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ مُصْطَلَحٍ عِلْمِيٍّ ، أَوْ خَاصَّةٍ مِنَ الْخَصَائِصِ ، أَوْ وَاقِعَةٍ مِنَ الْوَقَائِعِ .

٥ ـ اخْتِبَارُ التَّكْمِيلِ :

وَيَتَأَلَّفُ مِنْ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْعِبَارَاتِ الَّتِي حُذِفَتْ مِنْهَا كَلِمَاتٌ وَوُضِعَ فِي مَكَانِهَا نُقَطٌ ، وَيُطْلَبُ مِنَ التِّلْمِيذِ أَنْ يَضَعَ مِنْ عِنْدِهِ الْكَلِمَاتِ الْمَحْذُوفَةَ .

٦ ـ اخْتِبَارُ التَّرْتِيبِ :

وَيَتَأَلَّفُ مِنْ طَائِفَةٍ مِنَ الْعِبَارَاتِ ، أَوِ الْجُمَلِ ، أَوِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي دُوِّنَتْ فِي غَيْرِ نِظَامٍ وَلَوْ نُظِّمَتْ لَأَدَّتْ مَعْنًى مُتَكَامِلاً ، وَيُطْلَبُ مِنَ التِّلْمِيذِ إِعَادَةُ تَنْظِيمِهَا وَتَرْتِيبِهَا ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَضَعَ أَرْقَامًا مُتَسَلْسِلَةً أَمَامَ الْعِبَارَاتِ الَّتِي تُشِيرُ إِلَىٰ التَّرْتِيبِ الَّذِي يَجْعَلُ الْمَعْنَىٰ سَلِيمًا .

عُيُوبُ الِامْتِحَانَاتِ الْمَوْضُوعِيَّةِ :

غَيْرَ أَنَّ الْمُرَبِّينَ سُرْعَانَ مَا اكْتَشَفُوا أَنَّ هَذِهِ الِاخْتِبَارَاتِ إِذَا كَانَتْ قَدْ تَلَافَتْ عَيْبًا فَقَدْ أَحْدَثَتْ عُيُوبًا ، وَإِذَا كَانَتْ قَدِ اسْتَدْرَكَتْ نَقْصًا فَقَدْ عَجَزَتْ عَنِ اسْتِدْرَاكِ سَائِرِ النَّقَائِصِ ، وَوَجَدُوا أَنَّهَا ذَاتُ أَثَرٍ سَيِّئٍ عَلَىٰ التَّعْلِيمِ لَا يَقِلُّ أَثَرًا عَنِ امْتِحَانَاتِ الْمَقَالِ ...

فَهِيَ تُؤَدِّي إِلَىٰ تَفْتِيتِ مَعَارِفِ الطُّلَّابِ تَفْتِيتًا يَذْهَبُ بِوَحْدَتِهَا ، وَيَقْضِي عَلَىٰ التَّرَابُطِ بَيْنَهَا ، وَاسْتِخْلَاصِ الْأَحْكَامِ الْكُلِّيَّةِ مِنْهَا ...

ذَلِكَ لِأَنَّهَا تَحْمِلُ التَّلَامِيذَ عَلَىٰ اخْتِزَانِ الْحَقَائِقِ الْمُفْرَدَةِ الَّتِي لَا تَرْبِطُ بَيْنَهَا وَشِيجَةٌ مِنْ فِكْرٍ ، أَوْ تَذَوُّقٍ ، أَوْ مَغْزًى ؛ فَالسِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ ـ مَثَلاً ـ سَتَسْتَقِرُّ فِي أَذْهَانِ الطُّلَّابِ عَلَىٰ الْوَجْهِ التَّالِي :

ـ هَاجَرَ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ بِسَبَبِ اشْتِدَادِ أَذَىٰ قُرَيْشٍ .

ـ هُزِمَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ فِي يَوْمِ بَدْرٍ .

ـ بَنَىٰ[1] بِعَائِشَةَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهَا بَعْدَ الْهِجْرَةِ .
ـ تُوُفِّيَتْ زَوْجُهُ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَبْلَ الْهِجْرَةِ .
وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ السِّيرَةُ كَذَلِكَ أَبَدًا .

ثُمَّ إِنَّ الِامْتِحَانَاتِ إِذَا صَلَحَتْ لِاخْتِبَارِ صِغَارِ التَّلَامِيذِ وَمُتَوَسِّطِيهِمْ ، فَلَنْ تَصْلُحَ دَائِمًا لِاخْتِبَارِ كِبَارِهِمْ ؛ فَالطَّالِبُ كُلَّمَا تَقَدَّمَتْ سِنُّهُ وَارْتَقَىٰ مُسْتَوَاهُ فِي مَادَّتِهِ ، ابْتَعَدَ عَنِ الْحِفْظِ الْمُجَرَّدِ ، وَأَصْبَحَ مُطَالَبًا بِتَصَوُّرِ الْقَضَايَا الْمُعَقَّدَةِ ، وَالْأَفْكَارِ ، وَأُسْلُوبِ تَعْبِيرِهِ ، وَمَدَىٰ إِدْرَاكِهِ لِجَوْهَرِ مَوْضُوعِهِ ... وَالِاخْتِبَارَاتُ الْمَوْضُوعِيَّةُ لَا تُتِيحُ ذَلِكَ لِلْمُدَرِّسِ وَلَا تُيَسِّرُهُ لَهُ .

ثُمَّ مِنْ أَيْنَ لِلِامْتِحَانَاتِ الْمَوْضُوعِيَّةِ الْقُدْرَةُ عَلَىٰ اخْتِبَارِ الطُّلَّابِ فِي مَوْضُوعٍ كَمَوْضُوعِ نَظْرَةِ الْإِسْلَامِ إِلَىٰ الْمَالِ ، أَوْ مَكَانَةِ السُّنَّةِ فِي التَّشْرِيعِ ، أَوْ دِرَاسَةِ نَصٍّ أَدَبِيٍّ تَقُومُ عَلَىٰ الْفَهْمِ وَالتَّذَوُّقِ ؟ .

* * *

(١) بنىٰ بها : دخل بها .

جـ ـ التَّقْوِيمُ

إِنَّ الْمُرَبِّينَ لَمْ يُلْقُوا سِلَاحَهُمْ أَمَامَ مُشْكِلَةِ الِامْتِحَانَاتِ ؛ فَدَعَوْا رِجَالَ التَّرْبِيَةِ وَالْمُدَرِّسِينَ إِلَىٰ الِاسْتِفَادَةِ مِنْ مَزَايَا اخْتِبَارَاتِ « الْمَقَالِ » ، وَالِاخْتِبَارَاتِ « الْمَوْضُوعِيَّةِ » مَعًا ، وَأَنْ يَجْمَعُوا بَيْنَ الطَّرِيقَتَيْنِ فِي أَسْئِلَتِهِمْ .

ثُمَّ ظَلُّوا يُنَاضِلُونَ حَتَّىٰ هَدَاهُمُ الْبَحْثُ إِلَىٰ طَرِيقَةِ « التَّقْوِيمِ » ... وَمِنَ الْخَيْرِ أَنْ أُبَادِرَ إِلَىٰ الْقَوْلِ بِأَنَّ التَّقْوِيمَ لَيْسَ بَدِيلاً لِلِامْتِحَانَاتِ ، وَلَا صُورَةً مِنْ صُوَرِهَا ، وَ إِنَّمَا هُوَ أَعَمُّ مِنْهَا وَأَشْمَلُ ، وَهِيَ لَا تَعْدُو أَنْ تَكُونَ أَدَاةً مِنْ أَدَوَاتِهِ .

وَمَعْنَىٰ « التَّقْوِيمِ » مَعْرِفَةُ الْقِيمَةِ لِشَيْءٍ ، أَوْ فِكْرَةٍ ، أَوْ مَهَارَةٍ ، أَوْ قُدْرَةٍ ، أَوِ اسْتِعْدَادٍ ، أَوْ أَيِّ وَجْهٍ مِنْ وُجُوهِ النَّشَاطِ الْإِنْسَانِيِّ ، وَذَلِكَ بِالْقِيَاسِ إِلَىٰ هَدَفٍ مُحَدَّدٍ .

وَ« التَّقْوِيمُ » عَمَلِيَّةٌ دَائِمَةٌ فِي حَيَاتِنَا الْيَوْمِيَّةِ ؛ فَنَحْنُ نُقَوِّمُ مَا نَسْتَعْمِلُ مِنْ مَتَاعٍ لِنُحَدِّدَ مَدَىٰ صَلَاحِهِ لَنَا ، وَمَا نَأْتِي بِهِ مِنْ تَصَرُّفَاتٍ لِنُحَدِّدَ مَدَىٰ مُلَاءَمَتِهَا لِمَوْقِفٍ مِنَ الْمَوَاقِفِ ، وَمَا نُصَادِقُ مِنْ رِجَالٍ لِنُحَدِّدَ مَدَىٰ إِخْلَاصِهِمْ وَمَا يَتَمَتَّعُونَ بِهِ مِنْ مَزَايَا وَصِفَاتٍ .

وَالْعَمَلُ التَّعْلِيمِيُّ مِثْلُهُ كَمِثْلِ أَيِّ عَمَلٍ آخَرَ ، فَهُوَ يَحْتَاجُ مِنَّا أَنْ نَحْكُمَ عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ نَجَاحُهُ فِي تَحْقِيقِ أَغْرَاضِهِ أَوْ إِخْفَاقُهُ ، وَمِنْ حَيْثُ مَوَاطِنُ قُوَّتِهِ لِلِاسْتِزَادَةِ مِنْهَا ، وَمَوَاضِعُ ضَعْفِهِ لِتَلَافِيهَا .

وَإِذَا كَانَتِ الِامْتِحَانَاتُ تَقْصِرُ هَمَّهَا عَلَىٰ مَدَىٰ مَعْرِفَةِ التِّلْمِيذِ لِلْمَادَّةِ الْمَدْرَسِيَّةِ فَالتَّقْوِيمُ يَعْمَلُ فِي أَرْبَعَةِ مَيَادِينَ :

أَوَّلُهَا : تَتَبُّعُ التِّلْمِيذِ فِي جَمِيعِ نَوَاحِيهِ الرُّوحِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ وَالْجَسَدِيَّةِ وَالسُّلُوكِيَّةِ .

وَثَانِيهَا : تَتَبُّعُ الْمُدَرِّسِ مِنْ حَيْثُ أَسَالِيبُهُ وَطُرُقُهُ وَأَدَوَاتُهُ وَتَوْجِيهُهُ .

وَثَالِثُهَا : تَتَبُّعُ أَوْجُهِ النَّشَاطِ الْمَدْرَسِيِّ عَامَّةً .

وَرَابِعُهَا : تَتَبُّعُ الْمَنْهَجِ وَمَدَىٰ تَحْقِيقِهِ لِلْأَغْرَاضِ الَّتِي وُضِعَ مِنْ أَجْلِهَا .

وَ« التَّقْوِيمُ » عَمَلِيَّةٌ تَعَاوُنِيَّةٌ يَشْتَرِكُ فِيهَا كُلُّ مَنْ يُؤَثِّرُ فِي تَرْبِيَةِ التِّلْمِيذِ وَتَعْلِيمِهِ مِنَ الْمُدَرِّسِ وَالْمُدِيرِ وَالْمُفَتِّشِ وَالْمُرَاقِبِ ، بَلْ إِنَّ الطَّالِبَ نَفْسَهُ يَشْتَرِكُ مَعَ هَؤُلَاءِ فِي تَقْوِيمِ نَفْسِهِ وَزُمَلَائِهِ ...

وَأَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَتَعَرَّضَ فِي هَذَا الْبَحْثِ الضَّيِّقِ إِلَّا لِتَقْوِيمِ التِّلْمِيذِ لِعَلَاقَتِهِ بِالِامْتِحَانَاتِ ، أَوْ لِكَوْنِهِ الصُّورَةَ الْمُثْلَىٰ لَهَا فِي نَظَرِي .

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الِامْتِحَانِ وَ« التَّقْوِيمِ » يَبْدُو فِي أَرْبَعَةِ أُمُورٍ :

أَوَّلُهَا : أَنَّ الِامْتِحَانَاتِ عَمَلِيَّةٌ نِهَائِيَّةٌ تَتِمُّ غَالِبًا فِي نِهَايَةِ الْعَامِ الدِّرَاسِيِّ ...

أَمَّا « التَّقْوِيمُ » فَهُوَ عَمَلِيَّةٌ مُسْتَمِرَّةٌ تَبْدَأُ يَوْمَ يَبْدَأُ التَّعْلِيمُ ، وَلَا تَنْتَهِي إِلَّا بَعْدَ انْتِهَائِهِ ، وَالْهَدَفُ مِنْهَا إِعْطَاءُ أَكْمَلِ صُورَةٍ عَنْ نُمُوِّ الْعَمَلِيَّةِ التَّعْلِيمِيَّةِ فِي سَائِرِ نَوَاحِيهَا ، وَالْوُقُوفُ عَلَىٰ مَدَىٰ كِفَايَةِ الْوَسَائِلِ لِتَحْقِيقِ الْأَهْدَافِ .

وَثَانِيهَا : أَنَّ الِامْتِحَانَاتِ عَمَلٌ يَقُومُ بِهِ طَرَفٌ وَاحِدٌ هُوَ الْمُدَرِّسُ ...

أَمَّا « التَّقْوِيمُ » فَعَمَلٌ تَعَاوُنِيٌّ يَشْتَرِكُ فِيهِ الْمُرَاقِبُ وَالْمُدَرِّسُ ، وَالْمُدِيرُ وَالْمُفَتِّشُ ، وَالتِّلْمِيذُ وَوَلِيُّ الطَّالِبِ ، وَالْمُوَاطِنُونَ الْآخَرُونَ أَحْيَانًا .

وَثَالِثُهَا : أَنَّ الِامْتِحَانَاتِ عَمَلٌ قِيَاسِيٌّ يَقِيسُ مَدَىٰ كِفَايَةِ التِّلْمِيذِ فِي مَادَّةٍ مِنَ الْمَوَادِّ أَوْ عَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ ...

وَ« التَّقْوِيمُ » عَمَلٌ قِيَاسِيٌّ عِلَاجِيٌّ ، فَهُوَ حِينَ يُعْطِي صُورَةً عَنِ الْحَالَةِ الرَّاهِنَةِ ، إِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ لِلْكَشْفِ عَنْ مَوَاطِنِ الضَّعْفِ وَأَسْبَابِهَا ، وَوَصْفِ الْعِلَاجِ الْمُلَائِمِ لَهَا .

وَرَابِعُهَا : أَنَّ الِامْتِحَانَاتِ تَقْصِرُ هَمَّهَا عَلَىٰ التِّلْمِيذِ ...
أَمَّا « التَّقْوِيمُ » فَيَعْمَلُ فِي أَرْبَعَةِ مَيَادِينَ :

- أَوَّلُهَا التِّلْمِيذُ .
- وَثَانِيهَا الْمُدَرِّسُ .
- وَثَالِثُهَا النَّشَاطُ .
- وَرَابِعُهَا الْمِنْهَاجُ .

فَهُوَ يَرْصُدُ ذَلِكَ كُلَّهُ ، وَيُشَخِّصُ عِلَلَهُ ، وَيَصِفُ الدَّوَاءَ لِكُلِّ دَاءٍ .

وَنَحْنُ لَا نُرِيدُ أَنْ نَتَعَرَّضَ فِي هَذَا الْمَبْحَثِ الضَّيِّقِ إِلَّا لِتَقْوِيمِ التِّلْمِيذِ وَحْدَهُ ؛ لِأَنَّهَا الصُّورَةُ الْمُثْلَىٰ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَقْتَرِبَ مِنْهَا الِامْتِحَانَاتُ مَا وَجَدَتْ إِلَىٰ ذَلِكَ سَبِيلاً .

وَيَهْدِفُ تَقْوِيمُ التِّلْمِيذِ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ الْأُمُورِ التَّالِيَةِ :

١ ـ مَدَىٰ فَهْمِهِ لِمَا تَلَقَّاهُ مِنْ مَعْلُومَاتٍ ، وَمَبْلَغُ قُدْرَتِهِ عَلَىٰ تَمَثُّلِهَا وَتَحْوِيلِهَا إِلَىٰ حَقَائِقَ عَامَّةٍ مُرَكَّزَةٍ ، وَالْإِفَادَةِ مِنْهَا فِي الْحَيَاةِ .

٢ ـ مَدَىٰ قُدْرَتِهِ عَلَىٰ التَّفْكِيرِ السَّلِيمِ ، وَالِاسْتِدْلَالِ الْمَنْطِقِيِّ ، وَالِاسْتِنْبَاطِ الْوَاعِي ، وَالتَّعْبِيرِ عَنْ أَفْكَارِهِ بِأُسْلُوبِهِ الْخَاصِّ .

٣ ـ مَعْرِفَةُ الْعَادَاتِ وَالْمَهَارَاتِ الَّتِي اكْتَسَبَهَا التِّلْمِيذُ ، وَالْوُقُوفُ عَلَىٰ مَدَىٰ إِفَادَتِهِ مِنْهَا فِي حَيَاتِهِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ .

٤ ـ رَصْدُ مَدَىٰ تَدَرُّجِهِ فِي سُلَّمِ النُّضْجِ ، وَمِقْدَارِ التَّوَازُنِ بَيْنَ عُمْرِهِ الزَّمَنِيِّ وَعُمْرِهِ الْعَقْلِيِّ .

٥ ـ الْكَشْفُ عَنِ اسْتِعْدَادَاتِ التِّلْمِيذِ وَمُيُولِهِ وَقُدْرَاتِهِ مِمَّا يُسَاعِدُ عَلَىٰ تَوْجِيهِهِ تَوْجِيهًا مِهْنِيًّا سَلِيمًا فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ .

٦ ـ تَشْخِيصُ حَالَةِ الطَّالِبِ مِنَ النَّوَاحِي الْجَسَدِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ .

٧ ـ مَعْرِفَةُ مَدَىٰ قُدْرَةِ الطَّالِبِ عَلَىٰ الْمُلَاءَمَةِ بَيْنَ نَفْسِهِ وَمُجْتَمَعِهِ الصَّغِيرِ وَمُجْتَمَعِهِ الْكَبِيرِ .

٨ ـ الْوُقُوفُ عَلَىٰ مَبْلَغِ اسْتِعْدَادِ التِّلْمِيذِ لِلنَّقْدِ الذَّاتِيِّ ، وَمَعْرِفَةِ الْمَصَاعِبِ الَّتِي تَعْتَرِضُ طَرِيقَهُ ، وَقُدْرَتِهِ عَلَىٰ مُوَاجَهَتِهَا بِشَجَاعَةٍ وَإِقْدَامٍ ، وَعَدَمِ تَهَرُّبِهِ مِنْهَا ، وَغَيْرِ ذَٰلِكَ مِمَّا يُشَخِّصُ كُلَّ حَالَةٍ مِنْ حَالَاتِهِ ، وَيُصَوِّرُ كُلَّ جُزْئِيَّةٍ مِنْ جُزْئِيَّاتِهِ .

وَسَائِلُ تَقْوِيمِ التَّلَامِيذِ :

وَكَأَنِّي بِكَ ـ أَيُّهَا الْقَارِئُ الْكَرِيمُ ـ تَقُولُ :

وَمِنْ أَيْنَ لَنَا مَعْرِفَةُ هَذَا كُلِّهِ ؟ ...

وَمَا الْوَسَائِلُ الَّتِي تُعِينُنَا عَلَىٰ بُلُوغِ ذَٰلِكَ ؟ .

وَالْمُرَبُّونَ يَقُولُونَ لَكَ : إِنَّ الْوَسَائِلَ كَثِيرَةٌ ، وَاسْتِعْمَالُهَا يَسِيرٌ إِذَا صَحَّتِ الْعَزَائِمُ ، وَخَلُصَتِ النِّيَّاتُ .

• فَمِنْهَا الْمُلَاحَظَةُ الْيَوْمِيَّةُ الْوَاعِيَةُ لِكُلِّ مَا يَقُومُ بِهِ الطَّالِبُ دَاخِلَ الْفَصْلِ وَهُوَ يُصْغِي وَيُنَاقِشُ ، وَفِي الْمَكْتَبَةِ وَهُوَ يَقْرَأُ وَيَبْحَثُ ، وَفِي الْبَاحَةِ وَهُوَ يُمَازِحُ وَيَلْعَبُ ، وَفِي النَّشَاطِ وَهُوَ يَتَعَاوَنُ مَعَ الْآخَرِينَ ... وَتَسْجِيلُ الْمُلَاحَظَاتِ عَلَيْهِ آنًا فَآنًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَشْعُرَ التِّلْمِيذُ بِذَلِكَ .

• وَمِنْهَا دِرَاسَةُ إِنْتَاجِ التِّلْمِيذِ مِنْ بُحُوثٍ وَمَقَالَاتٍ وَمُلَخَّصَاتٍ وَخَرَائِطَ وَتَجَارِبَ مِخْبَرِيَّةٍ وَغَيْرِهَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ قُدُرَاتِهِ ، وَيُشِيرُ إِلَىٰ نُمُوِّهِ ، عَلَىٰ أَنْ يَحْتَفِظَ الْمُدَرِّسُ بِنَمَاذِجَ كَافِيَةٍ مُؤَرَّخَةٍ مِنْ إِنْتَاجِ كُلِّ تِلْمِيذٍ ، وَأَنْ يُسَجِّلَ مُلَاحَظَاتِهِ عَلَيْهَا فِي سِجِلِّ نَشَاطِهِ الْخَاصِّ بِهِ .

• وَمِنْهَا مُذَكِّرَاتُ التِّلْمِيذِ الَّتِي يَكْتُبُهَا بِنَفْسِهِ بِتَشْجِيعٍ مِنْ أُسْتَاذِهِ ، حَيْثُ يَرْصُدُ فِيهَا مَدَىٰ تَقَدُّمِهِ وَتَحَسُّنِهِ مِنْ حِينٍ إِلَىٰ آخَرَ مِمَّا يُذْكِي فِي نَفْسِهِ الْحَمِيَّةَ وَيَبْعَثُهُ عَلَىٰ الْجِدِّ لِاسْتِكْمَالِ النَّقْصِ وَتَلَافِي الضَّعْفِ .

• وَمِنْهَا كِتَابَةُ السِّيرَةِ الذَّاتِيَّةِ يُدَوِّنُهَا التِّلْمِيذُ عَنْ نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ ، وَيُجِيبُ فِيهَا عَنْ أَسْئِلَةٍ مُحَدَّدَةٍ دَقِيقَةٍ يَضَعُهَا الْمُدَرِّسُ لَهُ ، لِيَحْكُمَ مِنْ خِلَالِ الْإِجَابَةِ عَنْهَا عَلَىٰ مَدَىٰ تَأْثِيرِ التَّرْبِيَةِ فِي التِّلْمِيذِ .

• وَمِنْهَا تَتَبُّعُ قِرَاءَاتِ التِّلْمِيذِ الْإِضَافِيَّةِ، لِمَعْرِفَةِ مُيُولِهِ وَاهْتِمَامَاتِهِ.

• وَمِنْهَا السَّبْرُ الشَّخْصِيُّ، حَيْثُ يَعْمَدُ الْمُدَرِّسُ حِينًا بَعْدَ حِينٍ إِلَىٰ التَّحَدُّثِ مَعَ الطَّالِبِ حَدِيثًا شَخْصِيًّا وُدِّيًّا يَرْمِي إِلَىٰ سَبْرِ غَوْرِهِ، وَالدُّخُولِ إِلَىٰ قَرَارَةِ نَفْسِهِ، وَالْكَشْفِ عَمَّا يُعَانِيهِ مِنْ نَقْصٍ، وَمَا يَتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ مَزَايَا.

• وَمِنْهَا أَحْكَامُ الْمُدَرِّسِينَ عَلَىٰ التِّلْمِيذِ فِي الْمَرْحَلَةِ السَّابِقَةِ، أَوِ الْمَدْرَسَةِ الَّتِي انْتَقَلَ مِنْهَا.

• وَمِنْهَا أَحْكَامُ أَوْلِيَاءِ التَّلَامِيذِ عَلَىٰ أَبْنَائِهِمْ.

• وَمِنْهَا اسْتِخْدَامُ سِجِلِّ التِّلْمِيذِ الْمُجَمَّعِ الَّذِي تَنْصَبُّ فِيهِ حَصِيلَةُ تِلْكَ الِاخْتِبَارَاتِ جَمِيعِهَا.

• **وَمِنْهَا - وَعَلَىٰ رَأْسِهَا - الِامْتِحَانَاتُ** بِأَنْوَاعِهَا الْمُخْتَلِفَةِ، وَأَسَالِيبِهَا الْمُتَعَدِّدَةِ، مِنْ شَفَهِيَّةٍ وَتَحْرِيرِيَّةٍ، وَاخْتِبَارَاتِ الْمَقَالِ، وَالِاخْتِبَارَاتِ الْمَوْضُوعِيَّةِ، وَاخْتِبَارَاتِ الذَّكَاءِ، وَالِاخْتِبَارَاتِ الْمَسْلَكِيَّةِ الَّتِي تَكْشِفُ عَنِ اسْتِعْدَادِ التَّلَامِيذِ لِاحْتِرَافِ مِهْنَةٍ مِنَ الْمِهَنِ.

وَبِذَلِكَ يَسْتَطِيعُ الْمُرَبِّي أَنْ يَحْكُمَ عَلَىٰ طُلَّابِهِ حُكْمًا دَقِيقًا عَادِلاً شَامِلاً ، وَأَنْ يُحَدِّدَ قِيمَةَ كُلٍّ مِنْهُمْ ، وَأَنْ يُوَجِّهَهُ الْوِجْهَةَ الَّتِي يَسَّرَهَا اللَّهُ لَهُ .

وَكَأَنِّي بِكَ - أَيُّهَا الْقَارِئُ الْكَرِيمُ - تَقُولُ فِي نَفْسِكَ : مَنْ ذَا الَّذِي يُفَصِّلُ ذَلِكَ ، وَمَنْ ذَا الَّذِي يُطِيقُهُ ؟ .

وَأَنَا أَقُولُ : إِنَّ الْأُمَمَ حِينَ تُدْرِكُ خَطَرَ التَّرْبِيَةِ الْعَظِيمَ عَلَىٰ وُجُودِهَا وَكِيَانِهَا وَمَكَانَتِهَا تَفْعَلُ ذَلِكَ ، وَإِنَّ الْمُعَلِّمَ حِينَ يَسْتَشْعِرُ عِظَمَ الْأَمَانَةِ الَّتِي أَوْدَعَهَا اللَّهُ فِي عُنُقِهِ يُقْبِلُ عَلَىٰ عَمَلِهِ بِإِخْلَاصٍ وَيَمْضِي فِيهِ .

أَذْكُرُ أَنَّنِي زُرْتُ مُدَرِّسًا لِلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي ثَانَوِيَّةٍ مِنْ ثَانَوِيَّاتِ « حلبَ » فِي « سُورِيَّا » ، وَبَعْدَ الْحِصَّةِ أَثْنَيْتُ عَلَىٰ مُسْتَوَىٰ طُلَّابِهِ الَّذِينَ شَاهَدْتُهُمْ وَتَمَنَّيْتُ أَنْ يَكُونَ طُلَّابُهُ الْآخَرُونَ كَذَلِكَ ... فَقَالَ لِي :

إِنَّ بِاسْتِطَاعَتِكَ أَنْ تَقِفَ عَلَىٰ مُسْتَوَيَاتِهِمْ فِي لَحَظَاتٍ ... وَقَادَنِي إِلَىٰ خِزَانَةٍ فِي الْفَصْلِ وَأَرَانِي فِيهَا أَرْبَعِينَ مِلَفًّا لِطُلَّابِهِ الْأَرْبَعِينَ ؛ جَمَعَ فِي كُلٍّ مِنْهَا سَائِرَ نَمَاذِجِ

إِنْتَاجِ التَّلَامِيذِ مِنْ وَظَائِفَ وَاخْتِبَارَاتٍ وَامْتِحَانَاتٍ ، وَرَتَّبَهَا حَسَبَ تَسَلْسُلِ تَوَارِيخِهَا ، وَدَوَّنَ مُلَاحَظَاتِهِ عَلَيْهَا .

وَصَدَّرَ الْمِلَفَّ بِرَسْمٍ بَيَانِيٍّ يَسْتَطِيعُ كُلُّ مَنْ يَطَّلِعُ عَلَيْهِ أَنْ يَقِفَ عَلَىٰ حَرَكَةِ نُمُوِّ التِّلْمِيذِ أَوْ جُمُودِهِ أَوْ تَقَهْقُرِهِ فِي ثَوَانٍ مَعْدُودَاتٍ ، وَدُهِشْتُ لِمَا رَأَيْتُ ، فَمَا كَلَّفَتِ الْوَزَارَةُ مُدَرِّسِيهَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ...

وَقُلْتُ لِلْمُدَرِّسِ - وَقَدْ تَمَلَّكَنِي الْحَيَاءُ مِنْهُ وَالْإِكْبَارُ لَهُ - :

لَا بُدَّ أَنَّكَ بَذَلْتَ جُهُودًا كَبِيرَةً فِي إِعْدَادِ هَذِهِ الْمِلَفَّاتِ وَتَصْنِيفِهَا ، فَقَالَ فِي تَوَاضُعٍ جَمٍّ :

إِنَّنِي لَمْ أَبْذُلْ جَهْدًا يَفُوقُ جُهُودَ إِخْوَانِي الْمُدَرِّسِينَ ؛ وَإِنَّمَا هُوَ قَلِيلٌ مِنَ التَّصْمِيمِ وَالتَّنْظِيمِ وَالِانْتِبَاهِ .

* * *

الإِمْتِحَانَاتُ
عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ

وَلِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ :

أَرَاكَ قَدْ تَنَاوَلْتَ الإِمْتِحَانَ عِنْدَ النَّاسِ جَمِيعًا ، وَلَمْ تَذْكُرْ شَيْئًا عَنِ الإِمْتِحَانِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ ... أَفَمَا كَانَ لَهُمْ فِي هَذَا الْمِضْمَارِ شَيْءٌ يُذْكَرُ ؟؟... وَأَنَا أُبَادِرُ فَأَقُولُ :

إِنَّ ذَلِكَ الْجِيلَ الْعَظِيمَ الَّذِي رَبَّاهُ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ فَأَغْنَىٰ بِهِ تَارِيخَ الدُّنْيَا ، وَزَانَ بِشَمَائِلِهِ مَفْرِقَ الْإِنْسَانِيَّةِ ...

وَ إِنَّ تِلْكَ الْحَرَكَةَ الْعِلْمِيَّةَ الزَّاهِرَةَ الَّتِي قَدَّمَهَا الْمُسْلِمُونَ لِلْعَالَمِ ... وَ إِنَّ ذَلِكَ السَّيْلَ الزَّاخِرَ مِنَ الْعُلَمَاءِ الأَعْلَامِ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ أَنْتَجَهُمْ تَارِيخُ الْإِسْلَامِ الثَّقَافِيُّ ...

إِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مَا كَانَ لَهُ أَنْ يُوجَدَ مِنْ غَيْرِ امْتِحَانَاتٍ وَاخْتِبَارَاتٍ وَتَقْوِيمٍ .

وَلَكِنِّي أَخَّرْتُ الْحَدِيثَ عَنْهُ إِشْفَاقًا عَلَىٰ الْمَوْضُوعِ، فَهُوَ يَحْتَاجُ إِلَىٰ مُجَلَّدَاتٍ وَمُجَلَّدَاتٍ لِاسْتِيعَابِهِ، لَا يَسَعُهُ كُتَيِّبٌ صَغِيرٌ، وَأَخَّرْتُهُ أَيْضًا لِيُنْظَرَ إِلَيْهِ فِي ضَوْءِ مَا سَبَقَ كُلِّهِ، وَلِنَقُولَ مَعَ الْقَائِلِينَ:

أُولَئِكَ آبَائِي فَجِئْنِي بِمِثْلِهِمْ
إِذَا جَمَعَتْنَا يَا جَرِيرُ الْمَجَامِعُ

كَيْفَ لَا يَكُونُ لِلْمُسْلِمِينَ نَصِيبٌ جَلِيلٌ مَوْفُورٌ فِي فَنِّ الِامْتِحَانَاتِ؟! ؛ وَهُوَ رُكْنٌ رَكِينٌ فِي عَقِيدَتِهِمْ...

أُمِرُوا أَنْ يَضَعُوهُ نُصْبَ عُيُونِهِمْ فِي كُلِّ حَرَكَةٍ مِنْ حَرَكَاتِ الْجَوَارِحِ، وَكُلِّ طَرْفَةٍ مِنْ طَرْفَاتِ الْعُيُونِ، وَكُلِّ هَمْسَةٍ مِنْ هَمَسَاتِ السَّرَائِرِ... إِنَّهُ الِامْتِحَانُ الْأَكْبَرُ...

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ * فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾[1].

(١) سورة القارعة: آية ٤ - ١١.

وَهُوَ امْتِحَانٌ يَتَّسِمُ بِالدِّقَّةِ ، وَالصِّحَّةِ ، وَالشُّمُولِ ، وَالْعَدَالَةِ ، وَعَدَمِ تَكْلِيفِ مَا لَا يُطَاقُ ، وَعَدَمِ الْمُؤَاخَذَةِ عَلَىٰ النِّسْيَانِ ، وَجَعْلِ النَّتَائِجِ عَلَىٰ وَفْقِ الأَعْمَالِ .

وَهُوَ يُؤَدِّي إِلَىٰ التَّأْثِيرِ فِي السُّلُوكِ ، وَالتَّنَافُسِ فِي الْخَيْرِ ... وَالْحَضِّ عَلَىٰ مُرَاقَبَةِ النَّفْسِ لِلْفَوْزِ بِالثَّوَابِ الَّذِي مَا مِثْلُهُ مِنْ ثَوَابٍ ، وَالنَّجَاةِ مِنَ الْعِقَابِ الَّذِي مَا بَعْدَهُ مِنْ عِقَابٍ .

ثُمَّ إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ زَاخِرٌ بِأَلْفَاظِ الِاخْتِبَارِ وَالِامْتِحَانِ وَالْفِتْنَةِ ، فَلَا تَكَادُ تَخْلُو سُورَةٌ مِنْ ذِكْرٍ لِوَاحِدٍ مِنْهَا .

نَمَاذِجُ مِنَ الِامْتِحَانَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ :

وَالْمُسْلِمُونَ وَعَلَىٰ رَأْسِهِمُ الْمُعَلِّمُ الْأَعْظَمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وبِوَحْيٍ مِنْ عَقِيدَتِهِمْ ، وَبِهَدْيٍ مِنْ قُرْآنِهِمْ ، قَدِ اعْتَمَدُوا الِامْتِحَانَاتِ سَبِيلاً إِلَىٰ التَّعْلِيمِ ، وَالتَّوْجِيهِ ، وَالتَّمْيِيزِ ، وَإِعْطَاءِ كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، وَوَضْعِ الشَّخْصِ الْمُنَاسِبِ فِي الْمَكَانِ الْمُنَاسِبِ فِي دِقَّةٍ بَالِغَةٍ وَتَجَرُّدٍ كَامِلٍ وَمُلَاحَظَةٍ يَقِظَةٍ .

فَهَا هُوَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ يَخْتَبِرُ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ(١)

(١) مُعَاذ بْن جَبَل : انظره في كتاب « صور من حياة الصَّحابة » للمؤلف ، الناشر دار الأدب الإسلامي ، الطبعة المشروعة .

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ بَعَثَ بِهِ إِلَىٰ الْيَمَنِ فَيَقُولُ :

(كَيْفَ تَصْنَعُ إِنْ عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ ؟) .

قَالَ : أَقْضِي بِمَا فِي كِتَابِ اللَّهِ .

قَالَ : (فَإِنْ لَمْ يَكُنْ ؟) .

قَالَ : فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ .

قَالَ : (فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ؟) .

قَالَ : أَجْتَهِدُ رَأْيِي وَلَا آلُو[1].

فَابْتَهَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَتِيجَةِ الِاخْتِبَارِ ، وَضَرَبَ صَدْرَ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَالَ :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللَّهِ)[2].

وَهُوَ اخْتِبَارٌ لِأَكْثَرَ مِنْ نَاحِيَةٍ ، وَهُوَ حَرِيٌّ أَنْ يَكُونَ مَثَلاً يُحْتَذَىٰ فِي اخْتِبَارَاتِ الْمُوَظَّفِينَ ، حَيْثُ يُخْتَبَرُ كُلُّ امْرِئٍ فِيمَا نَدَبَ نَفْسَهُ لَهُ .

---

(١) ولا آلو : لا أدخر جهدًا في الأمر .

(٢) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ « مُخْتَصَرُ أَبِي دَاوُدَ » ٥/ ٢١٢.

وَالرَّسُولُ ﷺ يَخْتَبِرُ ذَكَاءَ أَصْحَابِهِ أَيْضًا ، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأُتِيَ بِجُمَّارٍ[١] فَقَالَ :

(إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً مَثَلُهَا كَمَثَلِ الْمُسْلِمِ حَدِّثُونِي مَا هِيَ ؟) ... فَأَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ هِيَ النَّخْلَةُ ، فَإِذَا أَنَا أَصْغَرُ الْقَوْمِ فَسَكَتُّ . قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (هِيَ النَّخْلَةُ)[٢] .

وَالرَّسُولُ ﷺ يَخْتَبِرُ إِيمَانَ بَعْضِهِم اخْتِبَارًا يَتَّفِقُ مَعَ مَدَارِكِهِ وَيَكْتَفِي مِنْهُ بِالْجَوَابِ الَّذِي يُلَائِمُ قُدْرَاتِهِ ، فَعَنْ مُعَاوِيَةَ ابْنِ الْحَكَمِ قَالَ :

كَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَىٰ غَنَمًا لِي قِبَلَ « أُحُدٍ » ، فَطَلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّيبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا ، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُعْتِقُهَا ؟ . قَالَ : (ائْتِنِي بِهَا) ... فَأَتَيْتُهُ بِهَا .

فَقَالَ لَهَا : (أَيْنَ اللَّهُ ؟) .

قَالَتْ : فِي السَّمَاءِ .

---

(١) جُمَّارٍ : أي شَحْم النَّخِيل .
(٢) أخرجه البُخَارِي « صَحِيحُ البُخَارِي بِشَرْحِ الكِرْمَانِي » ٢٠ / ٥٨ .

قَالَ : (مَنْ أَنَا ؟) .

قَالَتْ : رَسُولُ اللَّهِ .

قَالَ : (أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ)(١).

وَهُوَ ﷺ يَخْتَبِرُ قُدُرَاتِ بَعْضِهِمُ الْجَسَدِيَّةَ عَلَىٰ مَا نَدَبُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ مِنْ عَمَلٍ . فَقَدْ رَوَىٰ ابْنُ هِشَامٍ وَغَيْرُهُ :

أَنَّ نَفَرًا مِنْ صِبْيَانِ الْمُسْلِمِينَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ جَاءُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَسْأَلُونَهُ أَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ بِالْقِتَالِ يَوْمَ « أُحُدٍ » ؛ فَرَدَّهُمْ لِصِغَرِ أَعْمَارِهِمْ ، وَكَانَ فِيهِمْ :

سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ ، وَرَافِعُ بْنُ خُدَيْجٍ ، وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ، وَالْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ وَغَيْرُهُمْ ، وَكَانُوا يَوْمَئِذٍ يُقَارِبُونَ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ ... فَرَدَّهُمْ لِصِغَرِ أَسْنَانِهِمْ ، فَقِيلَ لَهُ :

يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ رَافِعًا رَامٍ ، فَأَجَازَهُ ...

فَجَعَلَ سَمُرَةُ يَبْكِي وَيَقُولُ : أَنَا أَقْوَىٰ أَنَا أَصْرَعُهُ ...

---

(١) مُسْنَدُ أَحْمَدَ ٥/ ٤٤٧.

فَاخْتَبَرَهُ الرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَصَرَعَهُ ، فَأَجَازَهُ أَيْضًا وَرَدَّ الْبَاقِينَ[1].

وَلَا أَكُونُ مُدَّعِيًا وَلَا مُبَالِغًا إِذَا قُلْتُ :

إِنَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَىٰ « التَّقْوِيمِ » عَلَىٰ أَنَّهُ نِهَايَةُ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ جَهْدٌ بَشَرِيٌّ فِي اخْتِبَارِ النَّاسِ وَتَوْجِيهِهِمْ ، إِنَّ أُولَئِكَ قَدْ أَفَادُوا مِنَ الْمُرَبِّي الْأَعْظَمِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِطَرِيقٍ أَوْ بِآخَرَ .

فَقَدْ مَلَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَبِيلَ « التَّقْوِيمِ » الشَّامِلِ الْكَامِلِ الدَّقِيقِ فِي تَرْبِيَةِ أَصْحَابِهِ ، فَكَانَ دَائِمَ الْمُلَاحَظَةِ لَهُمْ ، شَدِيدَ الْيَقَظَةِ عَلَىٰ تَصَرُّفَاتِهِمْ ، سَرِيعَ الْمُبَادَرَةِ إِلَىٰ تَوْجِيهِهِمْ ...

فَهَذَا غُلَامٌ يُؤَاكِلُ الرَّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ؛ فَتَطِيشُ يَدُهُ فِي الصَّحْفَةِ ... فَيَهْتَبِلُهَا[2] الرَّسُولُ ﷺ فُرْصَةً لِتَوْجِيهِهِ ، وَيَقُولُ لَهُ : (يَا غُلَامُ سَمِّ اللَّهَ تَعَالَىٰ ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ) ... فَيَسْتَجِيبُ الْغُلَامُ لِلْمُرَبِّي الْأَعْظَمِ وَيَقُولُ :

« فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طُعْمَتِي بَعْدُ »[3].

---

(١) السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ لِابْنِ هِشَامٍ (٣/١٠ - ١١).
(٢) فيهتبلها : ينتهزها. (٣) صحيح مسلم ٣/١٥٩٩ الحديث ٢١٠٨.

وَهَذَا رَجُلٌ يَمْشِي بِنَعْلٍ وَاحِدَةٍ فَيَكْرَهُ الرَّسُولُ ﷺ ذَلِكَ لِأَصْحَابِهِ، وَيَجِدُ أَنَّ الْحَفَا أَكْرَمُ مِنْهُ فَيَقُولُ:

(لَا يَمْشِي أَحَدُكُمْ فِي نَعْلٍ وَاحِدَةٍ لِيَنْتَعِلْهُمَا جَمِيعًا، أَوْ لِيَخْلَعْهُمَا جَمِيعًا)[1].

وَيَقُولُ ﷺ فِي مَقَامٍ آخَرَ: (إِذَا انْقَطَعَ شِسْعُ نَعْلِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَمْشِ فِي الْأُخْرَىٰ حَتَّىٰ يُصْلِحَهَا)[2].

وَلَا أُرِيدُ أَنْ أُكْثِرَ عَلَيْكُمْ مِنْ ذِكْرِ الشَّوَاهِدِ، فَفِي ذِهْنِ أَيٍّ مِنْكُمْ أَضْعَافُ أَضْعَافِ مَا ذَكَرْتُ وَإِنَّمَا هِيَ نَمَاذِجُ تَمْثِيلٍ لَا لِلِاسْتِقْصَاءِ وَالْحَصْرِ.

وَسَلَكَ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ، وَوُلَاةُ الْمُسْلِمِينَ سَبِيلَ رَسُولِهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي اعْتِمَادِ الِاخْتِبَارِ وَسِيلَةً لِلتَّثَبُّتِ وَالتَّمْيِيزِ، وَوَضْعِ الْأُمُورِ فِي مَوَاضِعِهَا.

وَلَعَلَّ مِنْ أَطْرَفِ الِاخْتِبَارَاتِ مَا أَمَرَ بِهِ «الْمُقْتَدِرُ»[3] سَنَةَ

---

(١) صحيح مسلم ٣/١٦٦٠، الحديث ٦٨.
(٢) صحيح مسلم ٣/١٦٦٠، الحديث ٦٩.
(٣) الْمُقْتَدِر: المقتدر بالله «جعفر بن المعتضد» الخليفة العباسي الثامن عشر «٢٩٥ - ٣٢٠هـ، ٩٠٨ - ٩٣٢م».

تِسْعَ عَشْرَةَ وَثَلَاثِمِائَةٍ حَيْثُ أَخْطَأَ بَعْضُ الْمُتَطَبِّبِينَ فِي مُعَالَجَةِ رَجُلٍ مِنَ الْعَامَّةِ فَمَاتَ الرَّجُلُ، فَأَمَرَ الْخَلِيفَةُ «الْمُقْتَدِرُ» أَلَّا يَتَصَدَّىٰ أَحَدٌ لِمُعَالَجَةِ النَّاسِ إِلَّا إِذَا أَدَّىٰ امْتِحَانًا ... وَجَعَلَ أَمْرَ هَذَا الِامْتِحَانِ إِلَىٰ «سِنَانِ بْنِ قُرَّةَ» ...

فَامْتَحَنَ سِنَانٌ فِي نَوَاحِي «بَغْدَادَ» وَحْدَهَا نَحْوَ تِسْعِمِائَةِ طَبِيبٍ، وَحَدَّدَ لِكُلٍّ مِنْهُمْ مَا يَجُوزُ أَنْ يَتَصَدَّىٰ لَهُ.

وَعَرَفَ الْمُسْلِمُونَ الْأَقْدَمُونَ قَبْلَ قُرُونٍ طَوِيلَةٍ ضُرُوبَ الِامْتِحَانَاتِ الَّتِي لَمْ يَتَوَصَّلْ إِلَيْهَا الْمُرَبُّونَ الْمُحْدَثُونَ؛ إِلَّا مُنْذُ سَنَوَاتٍ مَعْدُودَاتٍ، فَنَادَوْا بِضَرُورَةِ اخْتِبَارِ النَّاشِئِ لِتَوْجِيهِهِ الْوِجْهَةَ الَّتِي يَصْلُحُ لَهَا، أَوِ الْحِرْفَةَ الَّتِي يَلِيقُ بِهَا، فَذَكَرَ كُلٌّ مِنْ صَاحِبِ «كَشْفُ الظُّنُونِ»، وَصَاحِبِ كِتَابِ «اللُّؤْلُؤُ النَّظِيمُ فِي رَوْمِ التَّعْلِيمِ»: أَنَّ عَلَىٰ كُلِّ نَاشِئٍ أَنْ يَعْرِفَ قَدْرًا مِنَ الْعُلُومِ الضَّرُورِيَّةِ لِلْحَيَاةِ كَالْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ وَالْحِسَابِ ...

ثُمَّ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّجِهَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَىٰ الْعِلْمِ أَوِ الْحِرْفَةِ الَّتِي تَتَّفِقُ مَعَ اسْتِعْدَادِهِ؛ فَمَا كُلُّ أَحَدٍ يَصْلُحُ لِتَعَلُّمِ كُلِّ الْعُلُومِ ...

فَإِذَا اتَّجَهَ إِلَىٰ الْعِلْمِ فَلْيَقْصِدِ الْعِلْمَ الَّذِي يَقْبَلُهُ طَبْعُهُ؛

فَمَا كُلُّ مَنْ يَصْلُحُ لِتَعَلُّمِ عِلْمٍ مِنَ الْعُلُومِ يَصْلُحُ لِجَمِيعِهَا .

ثُمَّ يَخْطُو عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ خُطْوَةً أُخْرَىٰ فِي هَذَا الْمِضْمَارِ ، فَيُحَدِّدُونَ الْجِهَةَ الَّتِي لَهَا حَقُّ الْحُكْمِ عَلَىٰ الطَّالِبِ وَتَوْجِيهِهِ الْوِجْهَةَ الَّتِي تَتَّفِقُ مَعَ مَلَكَاتِهِ وَكِفَايَاتِهِ ، فَيَقُولُ صَاحِبُ كِتَابِ « تَعْلِيمُ الْمُتَعَلِّمِ طَرِيقَ التَّعَلُّمِ » :

« وَلَا يَنْبَغِي لِلطَّالِبِ أَنْ يَخْتَارَ نَوْعَ الْعِلْمِ بِنَفْسِهِ بَلْ يُفَوِّضُ أَمْرَهُ إِلَىٰ الْأُسْتَاذِ ، ذَلِكَ لِأَنَّ الْأُسْتَاذَ قَدِ اجْتَمَعَتْ لَهُ مِنَ التَّجَارِبِ مَا يُفِيدُ ، فَهُوَ أَعْرَفُ بِمَا يَنْبَغِي لِكُلِّ وَاحِدٍ ، وَمَا يَلِيقُ بِطَبْعِهِ » .

ثُمَّ أَوْجَبُوا عَلَىٰ الْمُدَرِّسِ أَنْ يُجْرِيَ عَمَلِيَّةَ تَقْوِيمٍ شَامِلَةً لِطُلَّابِهِ حَتَّىٰ يُتَاحَ لَهُ الْحُكْمُ عَلَيْهِمْ حُكْمًا صَحِيحًا ، فَقَالَ الرَّاغِبُ فِي مُحَاضَرَاتِهِ : « وَإِنَّ عَلَىٰ الْمُدَرِّسِ أَنْ يَتَصَفَّحَ طُلَّابَهُ كَمَا يَتَصَفَّحُ خُطَّابَ بَنَاتِهِ » .

وَهُمْ قَدِ اعْتَادُوا اخْتِبَارَ الذَّكَاءِ وَسِيلَةً لِلتَّوْجِيهِ الْمَسْلَكِيِّ ، فَقَدْ جَاءَ فِي كِتَابِ « مِنْهَاجُ الْمُتَعَلِّمِ » :

« إِنَّ عَلَىٰ الْمُعَلِّمِ أَنْ يُشَخِّصَ طَبِيعَةَ الْمُبْتَدِئِ مِنَ الذَّكَاءِ

وَالْغَبَاءِ ، وَأَنْ يُعَلِّمَهُ عَلَىٰ مِقْدَارِ وُسْعِهِ ، وَأَلَّا يُكَلِّفَهُ الزِّيَادَةَ عَنْ مِقْدَارِهِ » .

هَذِهِ النَّظَرِيَّاتُ الِامْتِحَانِيَّةُ الرَّائِعَةُ لَمْ تُتْرَكْ حِبْرًا عَلَىٰ وَرَقٍ ، وَ إِنَّمَا أَخَذَتْ طَرِيقَهَا إِلَىٰ التَّطْبِيقِ ، فَأَثْمَرَتْ أَيْنَعَ الثَّمَرِ ، وَأَخْرَجَتْ لِلْمُسْلِمِينَ طَائِفَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ ، فَقَدْ رَوَىٰ الرَّاغِبُ فِي مُحَاضَرَاتِهِ : أَنَّ يُونُسَ بْنَ حَبِيبٍ كَانَ يَخْتَلِفُ إِلَىٰ الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ يَتَعَلَّمُ مِنْهُ الْعَرُوضَ ؛ فَصَعُبَ عَلَيْهِ تَعَلُّمُهُ فَقَالَ لَهُ الْخَلِيلُ يَوْمًا : مِنْ أَيِّ بَحْرٍ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئًا فَدَعْهُ

وَجَاوِزْهُ إِلَىٰ مَا تَسْتَطِيعُ

فَفَطِنَ التِّلْمِيذُ لِمَا عَنَاهُ أُسْتَاذُهُ وَتَرَكَ الْعَرُوضَ وَأَخَذَ يَتَعَلَّمُ النَّحْوَ ، حَتَّىٰ أَصْبَحَ فِي ذَٰلِكَ إِمَامًا كَبِيرًا وَعَالِمًا شَهِيرًا .

وَرَوَىٰ صَاحِبُ كِتَابِ « تَعْلِيمُ الْمُتَعَلِّمِ » :

« أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيَّ ، بَدَأَ يَتَعَلَّمُ الْفِقْهَ عَلَىٰ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ ، فَقَالَ لَهُ : اذْهَبْ فَتَعَلَّمِ الْحَدِيثَ ؛ لِمَا رَأَىٰ

أَنَّ ذَلِكَ الْعِلْمَ أَلْيَقُ بِطَبْعِهِ ، فَطَلَبَ عِلْمَ الْحَدِيثِ وَصَارَ إِلَىٰ مَا صَارَ إِلَيْهِ » .

غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ لَا يُعَدُّ شَيْئًا إِذَا قِيسَ بِمَا وَصَل إِلَيْهِ عُلَمَاءُ الْحَدِيثِ فِي فَنِّ الِاخْتِبَارِ ، وَإِنَّ تَارِيخَ الْإِنْسَانِيَّةِ الثَّقَافِيَّ ، سَوْفَ يَبْقَىٰ عَلَىٰ كَرِّ الْعُصُورِ فَخُورًا مَزْهُوًّا ، بِالْمَنْهَجِ الْمُبْتَكَرِ الدَّقِيقِ الْمُحْكَمِ ، الَّذِي وَضَعَهُ عُلَمَاءُ الْحَدِيثِ لِتَقْوِيمِ الرُّوَاةِ تَقْوِيمًا شَامِلاً ، وَأَوْدَعُوهُ فِي عِلْمِ الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ .

وَإِنَّ تَارِيخَ التَّرْبِيَةِ سَيَذْكُرُ عَلَىٰ الدَّوَامِ :

أَنَّ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءَ الْأَعْلَامَ قَدْ بَلَغُوا فِي دِقَّةِ الِاخْتِبَارَاتِ وَصِحَّتِهَا غَايَةَ مَا يُمْكِنُ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهِ طَاقَةٌ بَشَرِيَّةٌ ، وَهِيَ اخْتِبَارَاتٌ طَوِيلَةُ النَّفَسِ بَعِيدَةُ الْغَوْرِ ، شَدِيدَةُ الْحَسَاسِيَةِ ، تَنَاوَلَتِ الرَّاوِيَ مِنْ زَاوِيَتَيْ عَدَالَتِهِ وَضَبْطِهِ ، وَهُمَا زَاوِيَتَانِ تُحِيطَانِ بِهِ مِنْ سَائِرِ أَقْطَارِهِ ، حَيْثُ تُقَوِّمَانِ سُلُوكَهُ وَمَلَكَاتِهِ .

* * *

طُلَّابُنَا وَالِامْتِحَانَاتُ

وَالْآنَ أَجِدُ أَبْنَائِي الطُّلَّابَ وَكَأَنَّهُ قَدْ نَفِدَ صَبْرُهُمْ ، فَهُمْ سَيَتَقَدَّمُونَ إِلَىٰ الِامْتِحَانَاتِ ؛ وَأَنَا لَمْ أَقُلْ لَهُمْ شَيْئًا يَنْفَعُهُمْ فِي هَذِهِ الْمِحْنَةِ الَّتِي يَتَعَرَّضُونَ لَهَا فِي نِهَايَةِ كُلِّ عَامٍ ، وَلَمْ أُزَوِّدْهُمْ بِالسِّلَاحِ الَّذِي يَصُولُونَ بِهِ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ وَيَجُولُونَ ...

وَأَنَا أُبَادِرُ فَأَقُولُ لِأَبْنَائِي هَؤُلَاءِ :

لَيْسَتِ الِامْتِحَانَاتُ بِمِحْنَةٍ كَمَا يَتَصَوَّرُ بَعْضُهُمْ أَوْ جُلُّهُمْ ، وَإِنَّمَا هِيَ مَجَالٌ رَائِعٌ مِنْ مَجَالَاتِ إِبْرَازِ التَّفَوُّقِ ، وَمَيْدَانٌ رَحْبٌ لِإِظْهَارِ النُّبُوغِ ، وَحَصَادٌ يَانِعُ الْجَنَىٰ طَيِّبُ الثَّمَرَاتِ لِعَامٍ كَامِلٍ مِنَ الْحَرْثِ وَالْبَذْرِ وَالْمُثَابَرَةِ وَالنِّضَالِ ...

إِنَّهَا أَشْبَهُ مَا تَكُونُ بِتِلْكَ الْأَيَّامِ الْخِصْبَةِ الْغَنِيَّةِ الَّتِي يَقْضِيهَا الْمُزَارِعُ إِبَّانَ الْقِطَافِ .

وَالطَّالِبُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرَاهَا كَذَلِكَ إِذَا هُوَ حَرَثَ أَرْضَهُ فِي

وَقْتِ الْحَرْثِ ، وَأَلْقَىٰ بُذُورَهُ فِيهَا عَلَىٰ بَرَكَةِ اللَّهِ وَاسْمِهِ إِبَّانَ الْبَذْرِ ، وَرَعَىٰ نَبَاتَهُ بِعَيْنِهِ السَّاهِرَةِ وَيَدِهِ الْمَاهِرَةِ طَوَالَ الْعَامِ ...

أَمَّا الطُّلَّابُ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَحْصُدُوا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَزْرَعُوا ؛ فَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يَعْتَرِيهِمُ الْجَزَعُ مِنْ مُعَانَاتِهَا ، وَيُصِيبُهُمُ الْهَلَعُ عِنْدَ ذِكْرِهَا .

إِنَّ الطَّالِبَ الَّذِي يَسِيرُ فِي دِرَاسَتِهِ وَفْقَ خُطَّةٍ دِرَاسِيَّةٍ مَرْسُومَةٍ مَعْقُولَةٍ يَخْتَطُّهَا لِنَفْسِهِ(١).

إِنَّ هَذَا الطَّالِبَ يَنْتَظِرُ أَيَّامَ الِامْتِحَانَاتِ بِلَهْفَةٍ وَشَوْقٍ ، وَيَتَرَقَّبُهَا بِأَمَلٍ وَرَجَاءٍ ، وَيَمُرُّ بِهَا بِسُهُولَةٍ وَسَلَامٍ .

وَدَائِمًا يَظَلُّ الْأَمَلُ هُوَ قُوَّةَ الدَّفْعِ الْمُوَصِّلَةَ إِلَىٰ الِاجْتِهَادِ وَالْعَمَلِ ، وَفِي اسْتِطَاعَةِ مَنْ أَهْمَلَ أَنْ يَعْمَلَ ، وَفِي قُدْرَةِ مَنْ لَمْ يَبْذُرْ أَنْ يُبَادِرَ مُنْذُ هَذِهِ اللَّحْظَةِ فَقَدْ هَلَكَ الْمُسَوِّفُونَ .

* * *

---

(١) انظر كتاب « فن الدراسة » للمؤلف .

كَيْفَ تُعِدُّ الْعُدَّةَ لِلامْتِحَانَاتِ؟

أ ـ الْـمُذَاكَرَةُ

إِنَّ بَعْضَ الطُّلَّابِ مَعَ الْأَسَفِ يَحْسَبُونَ أَنَّ إِجَازَةَ الْمُذَاكَرَةِ فُرْصَةٌ لِلتَّعَلُّمِ، وَنَحْنُ نَقُولُ لِهَؤُلَاءِ إِنَّ هَذِهِ الْفَتْرَةَ مَا هِيَ إِلَّا لِلْمُرَاجَعَةِ.

إِنَّهَا لِمُرَاجَعَةِ مَا دَوَّنْتَهُ مِنْ مُلَاحَظَاتٍ فِي قَاعَةِ الدَّرْسِ ... وَمَا كَتَبْتَهُ مِنْ مُلَخَّصَاتٍ خِلَالَ الْعَامِ، وَهِيَ وُقُوفٌ عِنْدَ الْخُطُوطِ الْحُمْرِ الَّتِي وَضَعْتَهَا تَحْتَ الْأَفْكَارِ الرَّئِيسَةِ فِي مَتْنِ الْكِتَابِ ... وَقِرَاءَةٌ لِلْعِبَارَاتِ الَّتِي كَتَبْتَهَا عَلَىٰ الْهَوَامِشِ تَلْخِيصًا لِفِكْرَةٍ، أَوْ تَمْثِيلاً لِقَاعِدَةٍ، أَوْ تَطْبِيقًا لِنَظَرِيَّةٍ.

وَأَيًّا كَانَ نَوْعُ دِرَاسَتِكَ فَأَنَا أَنْصَحُكَ إِذَا مَا هَمَمْتَ بِالْمُذَاكَرَةِ أَوِ الْمُرَاجَعَةِ أَنْ تَسْلُكَ السُّبِيلَ التَّالِيَةَ:

أَوَّلاً: قِفْ عَلَىٰ مَوَاعِيدِ الِامْتِحَانَاتِ الْمُقْبِلَةِ عَلَيْكَ، ثُمَّ نَظِّمْ لِنَفْسِكَ بِرْنَامِجًا لِلْعَمَلِ خِلَالَ فَتْرَةِ الْمُذَاكَرَةِ الَّتِي تَسْبِقُ

الِامْتِحَانَ ، وَفِي أَثْنَاءِ الِامْتِحَانِ نَفْسِهِ ، وَضَعْ نُصْبَ عَيْنَيْكَ وَأَنْتَ تُنَظِّمُ بِرْنَامِجَكَ هَذَا سَاعَاتِ النَّوْمِ وَالِاسْتِجْمَامِ ، وَالطَّعَامِ ، وَأَدَاءِ الْمَكْتُوبَةِ(١) .

ثَانِيًا : اعْلَمْ بِأَنَّ الطُّلَّابَ الَّذِينَ يَفْخَرُونَ بِأَنَّهُمْ يَقْضُونَ فَتْرَةَ الْمُذَاكَرَةِ فِي جِدٍّ دَائِبٍ وَسَهَرٍ سَاهِرٍ ، وَيَعِيشُونَ عَلَىٰ احْتِسَاءِ الْمُنَبِّهَاتِ ، إِنَّ هَؤُلَاءِ يُكَلِّفُونَ أَنْفُسَهُمْ شَطَطًا وَيُرْهِقُونَهَا عُسْرًا .

ثَالِثًا : إِنَّ لِلْمَرْءِ طَاقَةً مَحْدُودَةً ، فَإِذَا تَجَاوَزَهَا بَلَغَ دَرَجَةً مِنَ الْإِرْهَاقِ يَفْقِدُ مَعَهَا التَّمْيِيزَ بَيْنَ الْخَطَأِ وَالصَّوَابِ ، فَيَكُونُ كَالْمُنْبَتِّ(٢) الَّذِي لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَىٰ .

كَيْفَ تُذَاكِرُ ؟ :

وَلْنَفْتَرِضْ أَنَّكَ نَظَّمْتَ بِرْنَامِجَ عَمَلِكَ فِي ضَوْءِ مَا ذَكَرْنَا فَكَيْفَ تُذَاكِرُ ؟ .

إِنَّ الْمُرَبِّينَ يَنْصَحُونَكَ بِأَنْ تَعْتَمِدَ فِي مُذَاكَرَتِكَ خُطَّةً ذَاتَ أَرْبَعِ مَرَاحِلَ هِيَ :

---

(١) الْمَكْتُوبَةُ : الصَّلَاةُ .   (٢) المنبت : السائر وحده ، المنقطع عن القافلة .

(التَّصَفُّحُ ، وَالسُّؤَالُ ، وَالْقِرَاءَةُ ، وَالِاسْتِظْهَارُ) .

وَاعْمَدْ لِتَكْرَارِهَا لِتَرْسَخَ فِي ذِهْنِكَ - أَيُّهَا الْقَارِئُ الْكَرِيمُ - وَلِتَتَمَكَّنَ مِنْ نَفْسِكَ فَضْلَ تَمَكُّنٍ .

وَإِلَيْكَ بَيَانًا مُوجَزًا لِكُلِّ خُطْوَةٍ مِنْ هَذِهِ الْخُطُوَاتِ الْأَرْبَعِ :

أَوَّلاً : التَّصَفُّحُ

أَمَّا التَّصَفُّحُ فَالْغَرَضُ مِنْهُ تَكْوِينُ فِكْرَةٍ عَامَّةٍ عَنِ الْكِتَابِ أَوِ الْمَبْحَثِ الَّذِي أَنْتَ مُقْدِمٌ عَلَىٰ مُذَاكَرَتِهِ ... هَبْ أَنَّكَ عَزَمْتَ عَلَىٰ مُذَاكَرَةِ « الْبَلَاغَةِ » ، فَخُذِ الْكِتَابَ الْمُقَرَّرَ عَلَيْكَ ، وَتَصَفَّحْهُ كُلَّهُ وَقِفْ عَلَىٰ مُحْتَوَيَاتِهِ ، وَاسْتَعِنْ عَلَىٰ عَمَلِيَّةِ التَّصَفُّحِ هَذِهِ بِقِرَاءَةِ مُقَدِّمَةِ الْكِتَابِ وَفَهَارِسِهِ ، وَعَنَاوِينِهِ الْكُلِّيَّةِ وَالْجُزْئِيَّةِ ، وَخُلَاصَاتِهِ ، وَمُرَّ بِهِ مُرُورًا سَرِيعًا يَجْعَلُ هَيْكَلَهُ الْعَامَّ مَاثِلاً فِي ذِهْنِكَ .

فَإِذَا فَرَغْتَ مِنْ تَصَفُّحِ الْكِتَابِ كُلِّهِ ، فَانْتَقِلْ إِلَىٰ تَصَفُّحِ الْمَبْحَثِ الَّذِي تَوَدُّ مُذَاكَرَتَهُ ، وَأَوْلِهِ مِنْ وَعْيِكَ أَكْثَرَ مِمَّا أَوْلَيْتَ الْكِتَابَ ؛ حَتَّىٰ تُكَوِّنَ فِكْرَةً مُجْمَلَةً صَحِيحَةً عَنْهُ .

ثَانِيًا : السُّؤَالُ

ثُمَّ انْتَقِلْ بَعْدَ ذَلِكَ وَأَنْتَ مُطْمَئِنٌّ إِلَىٰ الْخُطْوَةِ الثَّانِيَةِ : خُطْوَةِ الْأَسْئِلَةِ ... وَخُطْوَةُ الْأَسْئِلَةِ هَذِهِ لَا تَأْتِي بَعْدَ خُطْوَةِ التَّصَفُّحِ كَمَا يَتَبَادَرُ إِلَىٰ الذِّهْنِ مِنْ مَفْهُومِ الْخُطُوَاتِ ، وَإِنَّمَا تَبْدَأُ مَعَهَا وَتَسْتَمِرُّ إِلَىٰ نِهَايَةِ الْمُذَاكَرَةِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ طَرْحَ الْأَسْئِلَةِ عَلَىٰ النَّفْسِ أَوْ عَلَىٰ الْآخَرِينَ ، إِنَّمَا هُوَ التَّعَلُّمُ ...

فَالسُّؤَالُ يُحَدِّدُ لِلْمُتَعَلِّمِ هَدَفًا ، وَقَدِيمًا قِيلَ :

« مَنْ كَانَ لَدَيْهِ سُؤَالٌ كَانَ عِنْدَهُ هَدَفٌ » .

وَتَحْدِيدُ الْهَدَفِ يَرْبِطُ الدَّارِسَ بِكِتَابِهِ ، وَيَقِيهِ مِنْ آفَاتِ الشُّرُودِ ، وَيَدْفَعُ عَنْهُ أَحْلَامَ الْيَقَظَةِ .

هَبْ أَنَّكَ عَزَمْتَ عَلَىٰ دِرَاسَةِ مَبْحَثِ « الْكِنَايَةِ » وَشَرَعْتَ تَخْطُو خُطْوَةَ التَّصَفُّحِ ، فَمِنَ الْمَفْرُوضِ أَنْ تُبَادِرَ إِلَىٰ طَرْحِ الْأَسْئِلَةِ التَّالِيَةِ عَلَىٰ نَفْسِكَ ... سَلْهَا قَائِلاً :

- مَا مَعْنَىٰ « الْكِنَايَةِ » فِي اللُّغَةِ ؟ .

- وَمَا مَعْنَاهَا فِي الِاصْطِلَاحِ ؟ .

ـ وَمَا الْعَلَاقَةُ بَيْنَ الْمَعْنَيَيْنِ ؟ .

ـ ثُمَّ هَلِ « الْكِنَايَةُ » مِنَ الْحَقِيقَةِ ، أَوْ هِيَ مِنَ الْمَجَازِ ؟ .

ـ وَإِذَا كَانَتْ مِنَ الْمَجَازِ فَمَا الْعَلَاقَةُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ « الِاسْتِعَارَةِ » ؟ .

ـ ثُمَّ مَا الْعَلَاقَةُ بَيْنَ « الْكِنَايَةِ » وَالرَّمْزِ فِي الْأَدَبِ الْحَدِيثِ ؟ .

وَكُلَّمَا حَصَلْتَ عَلَىٰ جَوَابٍ رَكِّزْهُ فِي ذِهْنِكَ ، أَوْ فِي دَفْتَرِكَ ، أَوْ فِي كِلَيْهِمَا ، وَحَاوِلْ أَنْ تَسْتَنْبِطَ مِنْهُ سُؤَالاً آخَرَ ، وَأَنْ تَلْتَمِسَ جَوَابَهُ ...

وَهُنَا لَا بُدَّ لَكَ مِنْ أَنْ تَقْرَأَ الْأَسْئِلَةَ الَّتِي ذَيَّلَ بِهَا الْمُؤَلِّفُ الْمَبْحَثَ قَبْلَ قِرَاءَتِهِ وَبَعْدَهَا ، وَأَنْ تَحْرِصَ عَلَىٰ أَنْ تَقِفَ عَلَىٰ أَجْوِبَتِهَا مِنْ خِلَالِ الْمُذَاكَرَةِ .

ثَالِثًا : الْقِرَاءَةُ

انْتَقِلْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَىٰ خُطْوَةِ الْقِرَاءَةِ ، وَلِكَيْ تُؤْتِيَ هَذِهِ الْخُطْوَةُ ثَمَرَتَهَا لَا بُدَّ مِنْ أَنْ نَتَذَكَّرَ عَلَىٰ الدَّوَامِ أَنَّنَا إِنَّمَا نَقْرَأُ ...

لِنَفْهَمَ، وَنُنَاقِشَ، وَنُرَكِّزَ، وَنُطَبِّقَ.

وَلَا يَتِمُّ لَنَا ذَلِكَ إِلَّا إِذَا حَرَصْنَا خِلَالَ الْقِرَاءَةِ عَلَىٰ الْإِجَابَةِ عَنِ الْأَسْئِلَةِ الَّتِي وَجَّهْنَاهَا لِأَنْفُسِنَا مِنْ قَبْلُ، وَالَّتِي سَنُوَجِّهُهَا إِلَيْهَا خِلَالَ الْقِرَاءَةِ، وَالَّتِي وَجَّهَهَا الْمُؤَلِّفُ إِلَيْنَا فِي نِهَايَةِ الْمَبْحَثِ ... وَإِلَّا إِذَا أَدْرَكْنَا أَنَّ النَّصَّ الْمَقْرُوءَ يَتَكَوَّنُ مِنْ ثَلَاثَةِ عَنَاصِرَ هِيَ:

- أَفْكَارٌ رَئِيسَةٌ.
- وَإِيضَاحَاتٌ هَامَّةٌ، وَشَوَاهِدُ أُتِيَ بِهَا لِدَعْمِ الْأَفْكَارِ.
- وَأُمُورٌ ثَانَوِيَّةٌ تَعِيشُ عَلَىٰ الْهَامِشِ.

وَإِلَّا إِذَا أَخَذْنَا أَنْفُسَنَا بِالْيَقَظَةِ الدَّائِمَةِ لِلتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْعَنَاصِرِ الثَّلَاثَةِ...

لِنُولِيَ الْأَوَّلَ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْعِنَايَةِ وَالتَّرْكِيزِ...
وَلِنَجْعَلَ الثَّانِيَ فِي خِدْمَةِ الْأَوَّلِ...
وَلِكَيْلَا نُعْطِيَ الثَّالِثَ إِلَّا النَّظْرَةَ الْعَابِرَةَ(١).

(١) انظر كِتَابُ: «فن القراءة» للمؤلف.

رَابِعًا : الِاسْتِظْهَارُ

فَإِذَا فَرَغْتَ مِنْ خُطْوَةِ الْقِرَاءَةِ فَانْتَقِلْ إِلَىٰ الْخُطْوَةِ الرَّابِعَةِ خُطْوَةِ الِاسْتِظْهَارِ ... وَنَحْنُ لَا نَعْنِي بِالِاسْتِظْهَارِ أَنْ تَحْفَظَ مَا قَرَأْتَهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ ...

وَ إِنَّمَا نَعْنِي أَنْ تَغْدُوَ قَادِرًا عَلَىٰ تَمَثُّلِ أَفْكَارِهِ الرَّئِيسَةِ ، وَتَفْصِيلَاتِهِ الْهَامَّةِ ، وَالتَّعْبِيرِ عَنْهَا بِأُسْلُوبِكَ الْخَاصِّ .

وَيَتِمُّ لَكَ ذَلِكَ بِالْوُقُوفِ فِي نِهَايَةِ كُلِّ فِقْرَةٍ ، وَبَيْنَ كُلِّ عُنْوَانٍ وَعُنْوَانٍ ، لِتَرْكِيزِ مَا قَرَأْتَهُ فِي ذِهْنِكَ وَتَسْمِيعِهِ لِنَفْسِكَ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ تُحَدِّدُ عَلَىٰ وَجْهِ الدِّقَّةِ :

مَا وَعَيْتَهُ ، وَمَا أَهْمَلْتَهُ ، وَمَا أَخْطَأْتَ فِيهِ ...

لِتُثَبِّتَ مَا وَعَيْتَهُ ، وَلِتَسْتَدْرِكَ مَا أَهْمَلْتَهُ ، وَتُصَحِّحَ مَا أَخْطَأْتَ فِيهِ .

فَإِذَا انْقَطَعَتْ فَتْرَةُ الْمُذَاكَرَةِ ، وَحَلَّتْ أَيَّامُ الِامْتِحَانِ ، فَاسْلُكْ فِيهَا سُلُوكًا آخَرَ ... فَلَيْسَ لَكَ أَنْ تَعْمَلَ فِي لَيْلَةِ الِامْتِحَانِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِ سَاعَاتٍ .

فَالِامْتِحَانُ فِي ذَاتِهِ جَهْدٌ بَالِغٌ ؛ لَنْ يَسْتَطِيعَ احْتِمَالَهُ إِلَّا رَجُلٌ مُرْتَاحٌ ، لَا إِنْسَانٌ مُتْعَبٌ مَنْهُوكُ الْقُوَىٰ .

ثُمَّ حَذَارِ مِنَ الرَّجْمِ بِالْغَيْبِ فِي مَوْضُوعِ الْأَسْئِلَةِ ...

فَكَثِيرٌ مِنَ الطُّلَّابِ يُرَكِّزُونَ اهْتِمَامَهُمْ عَلَىٰ أَسْئِلَةٍ تَنَبَّأُوا بِهَا ، ثُمَّ خَرَجُوا مِنَ الِامْتِحَانَاتِ نَادِمِينَ نَاقِمِينَ عَلَىٰ الْمُدَرِّسِ ... لِأَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ كَيْفَ يَضَعُ أَسْئِلَتَهُ ، أَوْ عَلَىٰ الْأَصَحِّ لَمْ يَعْرِفِ الْأَسْئِلَةَ الَّتِي وَضَعُوهَا لَهُ .

* * *

ب ـ فِي قَاعَةِ الِامْتِحَانِ

إِنَّ لِلِامْتِحَانِ رَهْبَةً ـ ذَلِكَ أَمْرٌ مُسَلَّمٌ لَا مِرْيَةَ فِيهِ ـ وَمِنْ آفَاتِ هَذِهِ الرَّهْبَةِ أَنَّهَا تُهَيِّجُ أَعْصَابَ الطُّلَّابِ وَتُثِيرُ نُفُوسَهُمْ، فَتُفْقِدُهُمُ الْقُدْرَةَ أَحْيَانًا عَلَىٰ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْأَهَمِّ، وَالْمُهِمِّ، وَقَلِيلِ الْأَهَمِّيَّةِ ... فَلَا تَعْمَلْ عَلَىٰ زِيَادَةِ هَيَجَانِكَ بِيَدِكَ.

وَالْمُرَبُّونَ يَنْصَحُونَكَ: بِأَنْ تَدْخُلَ إِلَىٰ قَاعَةِ الِامْتِحَانِ قَبْلَ مَوْعِدِهِ بِعَشْرِ دَقَائِقَ، وَأَلَّا تُزَاحِمَ الدَّاخِلِينَ، وَأَنْ تَسْتَقِرَّ فِي مَكَانِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُورِثُكَ بَعْضَ الْهُدُوءِ.

وَهُمْ يُحَذِّرُونَكَ فِي هَذِهِ اللَّحَظَاتِ مِنَ الْجَدَلِ مَعَ الْآخَرِينَ حَوْلَ بَعْضِ الْمُشْكِلَاتِ الْعِلْمِيَّةِ.

وَيُوصُونَكَ بِأَلَّا تَعْمَدَ فِي هَذِهِ اللَّحَظَاتِ إِلَىٰ مُرَاجَعَةِ كِتَابِكَ، أَوْ تَصَفُّحِ مُلَخَّصَاتِكَ ... لِأَنَّكَ لَنْ تَجْنِيَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا الْإِثَارَةَ وَالتَّشْوِيشَ.

ثُمَّ اقْرَأْ وَرَقَةَ الْأَسْئِلَةِ كُلَّهَا ، وَتَدَبَّرْ كُلَّ سُؤَالٍ فِيهَا ، وَقِفْ عَلَىٰ حُدُودِهِ وَأَبْعَادِهِ ؛ لِتَسْتَطِيعَ الِاخْتِيَارَ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ إِنْ كَانَ هُنَاكَ اخْتِيَارٌ ... وَلِتُحْسِنَ التَّصَرُّفَ بِالْوَقْتِ الْمُحَدَّدِ لَكَ .

وَعَلَيْكَ أَنْ تُبَاشِرَ أَوَّلاً بِالْإِجَابَةِ عَنِ الْأَسْئِلَةِ الْمَعْرُوفَةِ لَدَيْكَ ، وَأَلَّا تُرْجِئَهَا إِلَىٰ مَا بَعْدُ ؛ اعْتِقَادًا مِنْكَ بِأَنَّكَ تَسْتَطِيعُ الْإِجَابَةَ عَنْهَا مَتَىٰ شِئْتَ ، فَقَدْ يَفُوتُ الْوَقْتُ فِي مُعَالَجَةِ الصِّعَابِ ، وَعُصْفُورٌ فِي الْيَدِ خَيْرٌ مِنْ عَشَرَةٍ عَلَىٰ الشَّجَرَةِ .

وَعَلَيْكَ أَنْ تَعْلَمَ وَأَنْتَ تَتَدَبَّرُ الْأَسْئِلَةَ أَنَّ لِكُلِّ سُؤَالٍ نُكْتَةً[١]، وَأَنَّ السَّائِلَ يُرِيدُ مِنْكَ أَنْ تَكْتَشِفَهَا وَهُوَ سَوْفَ يَنْشُدُهَا فِي وَرَقَةِ إِجَابَتِكَ .

* * *

(١) النكتة : هي النقطة السوداء وسط مساحة بيضاء فتكون ظاهرة واضحة .

جـ ـ فَهْمُ مُصْطَلَحَاتِ الأَسْئِلَةِ

وَلِإِدْرَاكِ الأَسْئِلَةِ الْمَطْرُوحَةِ عَلَيْكَ لَا بُدَّ لَكَ مِنَ الْوُقُوفِ عَلَىٰ الْمُصْطَلَحَاتِ الَّتِي يَسْتَعْمِلُهَا الْمُدَرِّسُونَ حِينَ يَضَعُونَ أَسْئِلَتَهُمْ مِنْ أَمْثَالِ: «**وَازِنْ، وَعَرِّفْ، وَانْقُدْ، وَصِفْ، وَوَضِّحْ، وَلَخِّصْ، وَنَاقِشْ، وَعَدِّدْ، وَتَتَبَّعْ**».

• **فَإِذَا قِيلَ لَكَ «وَازِنْ» بَيْنَ أَمْرَيْنِ:**

فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ عَلَيْكَ أَنْ تَقِفَ عَلَىٰ الْخَصَائِصِ الَّتِي يَنْفَرِدُ بِهَا كُلٌّ مِنْ هَذَيْنِ الأَمْرَيْنِ، وَعَلَىٰ الصِّفَاتِ الْمُشْتَرِكَةِ بَيْنَهُمَا، وَأَنْ تُوَازِنَ بَيْنَهُمَا مِنْ خِلَالِ مَا اتَّفَقَا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَا فِيهِ.

• **وَ إِذَا قِيلَ لَكَ «عَرِّفْ» كَذَا:**

فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ عَلَيْكَ إِيرَادَ الْحَقَائِقِ الْوَاضِحَةِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي تُحَدِّدُ هَذَا الْمُعَرَّفَ؛ بِحَيْثُ يَكُونُ التَّعْرِيفُ جَامِعًا لِسَائِرِ أَفْرَادِهِ؛ دَافِعًا عَنْهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا...

أَمَّا التَّفْصِيلَاتُ فَلَيْسَ لَكَ أَنْ تَلْتَفِتَ إِلَيْهَا أَبَدًا.

● وَإِذَا قِيلَ لَكَ « انْقُدْ » كَذَا :

فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ عَلَيْكَ أَنْ تُورِدَ خَصَائِصَ هَذَا الْأَمْرِ : حَسَنَاتِهِ ، وَسَيِّئَاتِهِ ، وَأَنْ تَخْرُجَ مِنْ ذَلِكَ بِحُكْمٍ مَنْطِقِيٍّ مُعَلَّلٍ مُعْتَمِدًا عَلَىٰ مَا أَسْلَفْتَ .

● وَإِذَا قِيلَ لَكَ « صِفْ » كَذَا :

فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ عَلَيْكَ تِبْيَانَ خَصَائِصِ هَذَا الْأَمْرِ وَتَصْوِيرَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُصْدِرَ حُكْمًا عَلَيْهِ .

● وَإِذَا قِيلَ لَكَ « وَضِّحْ » كَذَا :

فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ أَمَامَكَ فِكْرَةً مُجْمَلَةً ، أَوْ قَضِيَّةً عَامَّةً ، أَوْ حُكْمًا مُرَكَّزًا ، وَأَنَّ عَلَيْكَ أَنْ تَضَعَ بَيْنَ يَدَيِ الْمُمْتَحِنِ إِيضَاحًا لِذَلِكَ ؛ مُسْتَعِينًا بِمَا عِنْدَكَ مِنْ مُخَطَّطَاتٍ جُغْرَافِيَّةٍ وَخُطُوطٍ بَيَانِيَّةٍ وَغَيْرِهَا .

● وَإِذَا قِيلَ لَكَ « لَخِّصْ » كَذَا :

فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ عَلَيْكَ أَنْ تُنَظِّمَ مُوجَزًا يَشْتَمِلُ عَلَىٰ أَهَمِّ الْعَنَاصِرِ الرَّئِيسَةِ لِمَا يُرَادُ تَلْخِيصُهُ مَعَ التَّفْصِيلَاتِ الضَّرُورِيَّةِ .

● وَ إِذَا قِيلَ لَكَ « نَاقِشْ » كَذَا :

فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ عَلَيْكَ أَنْ تَخْتَبِرَ الْمَوْضُوعَ أَوِ الْفِكْرَةَ الْمُعْطَاةَ لَكَ وَأَنْ تُحَلِّلَهَا ، وَأَنْ تُثْبِتَ مَا يَثْبُتُ مِنْهَا بِبُرْهَانٍ ، وَأَنْ تَنْفِيَ مَا تَنْفِي مِنْهَا بِبُرْهَانٍ أَيْضًا .

● وَ إِذَا قِيلَ لَكَ « عَدِّدْ » حَالَاتِ كَذَا :

فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ عَلَيْكَ أَنْ تَسْرُدَهَا سَرْدًا ، وَأَنْ تَذْكُرَ مَعَ كُلِّ حَالَةٍ أَبْرَزَ الْعَنَاصِرِ الَّتِي تُمَيِّزُهَا مِنْ سِوَاهَا .

● وَ إِذَا قِيلَ لَكَ « تَتَبَّعْ » كَذَا مِمَّا دَرَسْتَهُ :

فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ عَلَيْكَ اسْتِقْرَاءَ مَا دَرَسْتَهُ كُلَّهُ ؛ لِتُحَدِّدَ مَوَاطِنَ وُرُودِ هَذَا الْأَمْرِ فِيهِ مَعَ بَيَانِ أَبْرَزِ خَصَائِصِ كُلٍّ مِنْهَا .

وَنَحْنُ لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُورِدَ لَكَ كُلَّ مَا يَخْطُرُ بِبَالِ الْمُدَرِّسِينَ مِنْ صِيَغٍ وَاصْطِلَاحَاتٍ يَسْتَعْمِلُونَهَا فِي أَسْئِلَتِهِمْ ، لِذَا فَنَحْنُ نُوصِيكَ أَنْ تَتَدَبَّرَ الْكَلِمَةَ الِاصْطِلَاحِيَّةَ الَّتِي اسْتُعْمِلَتْ فِي السُّؤَالِ لِفَهْمِهِ ، وَتَجَنُّبِ الْخَطَأِ فِيهِ .

* * *

د - وَرَقَةُ الْإِجَابَةِ

وَلَا يَفُتْكَ أَبَدًا :

• أَنَّ تَسَلْسُلَ الْأَفْكَارِ، وَتَنْظِيمَ الْإِجَابَةِ ضَرْبٌ مِنَ الْمَعْرِفَةِ لَهُ وَزْنُهُ عِنْدَ تَقْدِيرِ الدَّرَجَةِ ؛ فَالْمُدَرِّسُ الَّذِي يُصَحِّحُ مِئَاتِ الْأَوْرَاقِ سَيَكُونُ شَاكِرًا لَكَ إِنْ أَنْتَ يَسَّرْتَ لَهُ - بِالتَّنْظِيمِ - الْحُكْمَ عَلَيْكَ ... وَهُوَ لَنْ يَنْسَىٰ لَكَ هَٰذِهِ الْيَدَ عِنْدَ تَقْدِيرِ الْعَلَامَةِ .

• وَاجْعَلْ خَطَّكَ وَاضِحًا ؛ لِأَنَّ الْمُصَحِّحَ لَا يَسْتَطِيعُ مَنْحَكَ دَرَجَةً عَلَىٰ كَلَامٍ لَمْ تُمَكِّنْهُ أَنْتَ مِنْ قِرَاءَتِهِ ...

لَقَدْ أَعْطَىٰ الْمُشْرِفُونَ عَلَىٰ التَّصْحِيحِ لِلْمُدَرِّسِينَ كَثِيرًا مِنَ التَّعْلِيمَاتِ الصَّارِمَةِ لِكَيْ لَا يَلْتَفِتُوا إِلَىٰ الْخَطِّ عِنْدَ تَقْدِيرِ الدَّرَجَةِ ... غَيْرَ أَنَّ التَّجْرِبَةَ أَثْبَتَتْ أَنَّ الْمُدَرِّسَ يَضَعُ عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ مِنْهُ عَلَامَةً أَعْلَىٰ لِلْوَرَقَةِ ذَاتِ الْخَطِّ الْأَجْوَدِ مَعَ التَّسَاوِي فِي الْإِجَابَةِ .

• كُنْ بَعْدَ ذَلِكَ وَاضِحَ الْعِبَارَةِ ... فَالْإِيجَازُ الْمُخِلُّ وَكَذَلِكَ الْإِطْنَابُ الْمُمِلُّ آفَتَانِ مِنْ آفَاتِ الِامْتِحَانَاتِ ...

فَلَيْسَ الْمُصَحِّحُونَ مِنْ قُرَّاءِ الْأَفْكَارِ، وَهُمْ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَسْتَمْتِعُوا بِطُولِ إِجَابَاتِكَ، إِنَّ بَعْضَ الطُّلَّابِ يُطْنِبُونَ وَيُسْهِبُونَ رَغْبَةً فِي تَضْخِيمِ الْإِجَابَةِ ...

وَلِهَؤُلَاءِ نَقُولُ:

إِنَّ فِي مَيْسُورِ أَبْسَطِ الْمُدَرِّسِينَ تَمْيِيزَ الزَّبَدِ الَّذِي يَذْهَبُ جُفَاءً مِنَ الدُّرِّ الَّذِي يَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ، وَإِنَّ إِجَابَتَهُمْ هَذِهِ لَنْ تَلْقَىٰ أَيَّ عَطْفٍ لَدَىٰ الْمُصَحِّحِينَ.

• ثُمَّ لْتَكُنْ لُغَتُكَ سَلِيمَةً ...

فَإِنَّ لِأَخْطَاءِ اللُّغَةِ، وَالنَّحْوِ، وَالصَّرْفِ، وَالْإِمْلَاءِ - خَاصَّةً - أَثَرًا كَبِيرًا فِي الصُّورَةِ الَّتِي تُعْطِيهَا عَنْ نَفْسِكَ لِأُسْتَاذِكَ.

• بَقِيَ عَلَيْنَا أَنْ نَلْفِتَ انْتِبَاهَكَ إِلَىٰ أَمْرٍ يَقَعُ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الطُّلَّابِ، ذَلِكَ هُوَ التَّرَدُّدُ الَّذِي يَحْمِلُ عَلَىٰ تَبْدِيلِ الْإِجَابَاتِ ...

وَالنَّصِيحَةُ الَّتِي نُسْدِيهَا إِلَيْكَ هِيَ أَلَّا تَلْجَأَ إِلَىٰ التَّبْدِيلِ إِلَّا عِنْدَمَا يَمْتَلِكُكَ شُعُورٌ قَوِيٌّ بِرُجْحَانِ الْخَطَأِ فِيمَا كَتَبْتَ ، أَمَّا إِذَا كُنْتَ مُتَرَدِّدًا بَيْنَ مَا كَتَبْتَ وَبَيْنَ مَا تُرِيدُ أَنْ تَكْتُبَ ، فَنَصِيحَتُنَا إِلَيْكَ أَنْ تُبْقِيَ عَلَىٰ مَا كَتَبْتَهُ أَوَّلاً ...

فَقَدْ دَلَّتِ التَّجَارِبُ عَلَىٰ أَنَّ الطَّالِبَ حِينَ يَعْمَدُ إِلَىٰ التَّخْمِينِ فِي إِجَابَتِهِ ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ مَا يَتَبَادَرُ إِلَيْهِ هُوَ الْأَقْرَبُ إِلَىٰ الصَّوَابِ ، لِأَنَّ بَاكُورَةَ الْحَدْسِ وَالتَّخْمِينِ هِيَ الْأَفْضَلُ وَالْأَدْنَىٰ إِلَىٰ الصَّوَابِ .

• فَإِذَا فَرَغْتَ مِنْ إِجَابَتِكَ وَتَحَقَّقْتَ مِنْ أَنَّكَ أَجَبْتَ عَنِ الْأَسْئِلَةِ كُلِّهَا وَلَمْ تَنْسَ أَيًّا مِنْهَا ، فَرَاجِعْ وَرَقَةَ إِجَابَتِكَ بِأَنَاةٍ ، وَسَتُصَابُ بِأَشَدِّ الدَّهْشَةِ حِينَ تَجِدُ أَنَّكَ وَقَعْتَ فِي طَائِفَةٍ مِنَ الْأَخْطَاءِ مَا كُنْتَ تَظُنُّ أَنْ يَقَعَ فِي مِثْلِهَا مِثْلُكَ .

• فَإِذَا سَلَّمْتَ وَرَقَةَ امْتِحَانِكَ إِلَىٰ الْمُرَاقِبِ فَنَصِيحَتُنَا إِلَيْكَ أَلَّا تُفَكِّرَ فِيمَا كَتَبْتَ ؛ فَإِنَّ تَفْكِيرَكَ هَذَا كَثِيرًا مَا يَدْفَعُكَ إِلَىٰ الِاعْتِقَادِ بِأَنَّكَ لَمْ تُوَفَّقْ فِي إِجَابَاتِكَ ، وَيَجُرُّكَ إِلَىٰ سُوءِ تَقْدِيرٍ فِي عَلَامَاتِكَ ... مِمَّا يَكُونُ لَهُ تَأْثِيرٌ كَبِيرٌ عَلَىٰ اسْتِعْدَادِكَ لِلْمَادَّةِ التَّالِيَةِ .

وَبَعْدُ، فَهَذَا الِامْتِحَانُ الْأَصْغَرُ تَكْدَحُ لَهُ كُلَّ هَذَا الْكَدْحِ، وَتَحْسِبُ لَهُ كُلَّ هَذَا الْحِسَابِ، وَتَتَحَمَّلُ لِلْفَوْزِ فِيهِ كُلَّ هَذَا الْعَنَاءِ، وَأَسْوَأُ نَتَائِجِهِ أَنْ يَرْسُبَ الْمَرْءُ سَنَةً فِي صَفِّهِ... فَمَا بَالُنَا بِالِامْتِحَانِ الْأَكْبَرِ؟...

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[1].

* * *

(١) سُورَةُ الشُّعَرَاءِ: آية ٨٨، ٨٩.

المراجع

- محاضرات في تاريخ العرب والإسلام - د. عبد اللطيف الضنياوي - دار الأندلس - بيروت .
- تاريخ التربية - عبد الله مشنوق ط٢ بيروت ١٩٣٧.
- في تاريخ التربية - د. « بول مترو » أستاذ تاريخ التربية بكلية المعلمين - ترجمة صالح عبد العزيز ، ومراجعة حامد عبد القادر .
- في أصول التربية وعلم النفس لمعاهد المعلمين والمعلمات لمحمد رفعت رمضان - خطاب عطية علي - محمد سليمان شعلان ، دار الفكر العربي ط ٢.
- النشاط المدرسي في المرحلة الثانوية - أوجار جونستون ، وورلاند فاونس ، ترجمة وتقديم د. محمد علي العريان ، ومراجعة محمد سعيد روحة . نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر القاهرة - نيورك مارس ١٩٦٢م .
- فن التعليم - جلبرت هايت - ترجمة ومراجعة وتحرير محمد فريد أبو حديد ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٤.

- المناهج أسسها وتنظيماتها وتقويم أثرها ـ الدكتور عبد اللطيف فؤاد إبراهيم الأستاذ بكلية التربية بجامعة عين شمس ـ مكتبة مصر.
- أصول التربية وفن التدريس ـ أمين مرسي قنديل ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- الإدارة المدرسية مبادئها وعملياتها ـ جيمس هارولد فوكس ورفيقه ـ ترجمة د. وهيب إبراهيم سمعان مكتبة النهضة المصرية ط٢ ١٩٦٤.
- فلسفة التربية ـ فيليب هـ. فينكس ـ ترجمة د. محمد لبيب النجيحي ـ دار النهضة العربية مع مؤسسة فرنكلين للطباعة.
- الأصول التربوية ـ د. حسين سليمان قورة ـ دار المعارف.
- التربية العامة ـ رونيه أوبير ـ ترجمة عبد الله عبد الدايم ـ دار العلم للملايين.

* * *

الْفِهْرِس

* * *